طريق الازدهار

أفكار وأساليب من أجل النهضة

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٣٥٤٤/ ٩/ ٢٠١٢)

ISBN 978-9957-479-89-3 :(ردمك)

طريق الازدهار

أفكار وأساليب من أجل النهضة

الأستاذ الدكتور

عبد الكريم بكار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فإن الأفكار والاهتمامات تجتاح العالم على شكل موجات متتابعة، ولعل التفكير في أمور النهضة ومقوماتها من أكثر ما يسيطر على عقول معظم المثقفين في بلادنا، وهذا يعود إلى أن العالم كله مهموم ومشغول بتلمس أسباب التفوق في السباق العالمي نحو الإنجاز والجودة والرفاهية والقضاء على الجهل والفقر والمرض.. والحقيقة أن من شأن التقدم الحضاري الإغراء بالبحث عن المزيد من التقدم، ولا يخفى إلى جانب هذا أن عالمنا العربي والإسلامي يعاني من مشكلات كبرى، قد يكون على رأسها ارتباك كثير من الناس في الاهتداء إلى الوضعية التي يكونون فيها ملتزمين بدينهم على نحو جيد مع امتلاك

الأخلاق والأهليات والمهارات والأدوات التي تجعلهم يعيشون عصرهم بكفاءة وجدارة، ومن واجب كل المثقفين والنهضويين المساعدة في حل هذه الإشكالية وبلورة ملامح الوضعية المنشودة .

إن المشروع النهضوي فسيح الأبعاد كثير التفاصيل، ولا يمكن إنجازه في أي كتاب، وهذا ليس بسبب ضخامته فحسب، ولكن بسبب أن المفكرين والمهتمين بالنهضة لايستطيعون بلورته في فترة زمنية محدودة ومحصورة، لأن من طبيعة الرؤى النهضوية أنها لا تتبدى إلا على سبيل التدرج، وربما تنقضي هذه الحياة دون أن يتمكن أحد من قول الكلمة الأخيرة فيها .

إن هذه الرسالة مكونة من عدد من المقالات التي تم نشرها في بعض المجلات الورقية والمواقع الإلكترونية خلال السنوات الماضية، وقد قمت بجمعها لاعتقادي بأن كثيراً من قرائي الكرام لم يطلعوا عليها، مع أنها توقد العديد من الشموع على طريق النهضة الطويل.

إنني أسأل الله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن ينفع بهذا الكتاب كل من يطلع عليه،وأن يجعله في موازين حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون .

المؤلف

الرياض في

١٠/ ٧/ ١٤٣٣هـ

عنف الظروف

في داخل كل واحد منا سلسلة لا تنتهي من المعارك الصامتة بين رغباته والظروف التي تضغط عليه من جهة، وبين إرادته وواجباته، وما يشعر أنه الصواب من جهة أخرى، وقد أثبت الإنسان في مواقف لا تُحصى أنه قادر على التأبّي والتمنُّع على المغريات والمفاتن والظروف الصعبة، لكن ذلك يظل في حاجة إلى شيئين اثنين: وعي جيد بما ينبغي عمله، ووقود روحي للقيام به، وبما أن معظم الناس معوزون في أحد هذين الشيئين، أو فيهما معاً، فقد صار من المألوف خضوع الناس للظروف التي يجدون أنفسهم فيها، و على امتداد التاريخ كانت الظروف الصعبة المتمثلة في الضعف و الفقر و المرض و التهميش الاجتماعي... تمارس درجة عالية من العنف ضد الإنسان في كل مكان من الأرض، و ليس هذا فحسب، بل إن الظروف المحبوبة من الغنى و القوة و الصحة و النفوذ و النسب

الرفيع و الجاه و الجمال... ظلت هي الأخرى تدفع الناس في اتجاهات سيئة، بل مدمرة.

قد يستغرب القارئ الكريم من تقرير هذا المعنى؛ إذ إن الناس يشعرون بالكثير من السرور و الامتنان حين يمتلكون أسباب القوة و الرفاهية، بل إنهم يبذلون الكثير من الجهد والوقت في سبيل الحصول على ذلك، ولا لوم عليهم في هذا، لكن علينا أيضاً أن نقول: إن الأشياء المحيطة بنا لا تكون جيدة بسبب خصائصها الذاتية فحسب، وإنما بمدى قدرتها على دفعنا في الاتجاه الصحيح، و مدى ملاءمتها لتركيبنا الروحي و العقلي و الاجتماعي...، و قد نجد هذا المعنى في قوله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» حيث نجد التركيز هنا على نوع عميق من الملاءمة بين المال والإنسان.

المؤرخ البريطاني الكبير (أرنولد توينبي) أشار إلى ما سماه (المحيط الذهبي) وهو المحيط الذي يتحدى الناس، ولا يعجزهم، وذلك لأن المحيط حين يكون صعباً جداً يكسر إرادة الإنسان، ويجعله يتقولب معه، وذلك حين يفقد إرادة التغيير، وإرادة الممانعة، وهذا ما نجده لدى معظم الناس الذين يظلون باطلين عن العمل مدداً طويلة، وأولئك الذين يعيشون في مناطق مكتظة وفقيرة بالخدمات الأساسية: الماء والكهرباء والصرف الصحي والمستشفيات.... وإن مدن الصفيح المنتشرة في الكثير من دول العالم

تقدم نموذجاً لما نقوله، فأنت ترى في تلك المدن هوانَ الإنسان وتجلّيات ضعفه وغرائزه في آن واحد؛ حيث المخدرات، والدعارة، والشعور بالخذلان، وانسداد الآفاق..

الإنسان أيضاً حين يعيش في بحبوحة من العيش، وحين يكسب الرزق الوفير بسهولة بالغة، فإنه يجد نفسه معرَّضاً لممارسة نوع آخر من عنف الظروف، وهو ما أطلق عليه بعض علماء الحضارة اسم: (خيانة الرخاء).

إن الإنسان يحتاج إلى أن يشعر بالتعب والتحدي حتى يمارس الإبداع، وحتى ينهض إلى تطوير مهاراته ورفع مستوى كفاءته الشخصية، كما يحتاج إلى الإحساس بشيء من السدود والموانع التي تعوقه عن العدوان على حقوق الآخرين، وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة تقريراً لا لبس فيه، حيث قال جل شأنه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦،٧]. وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى:٢٧].

إن (فرعون) يقدم نموذجاً لما يمكن أن يفعله الإنسان حين يجد نفسه مستغنياً، وحين يجد نفسه فوق المساءلة والمعارضة، ويتحدث بعض مؤرخي الحضارة عن نموذج كبير لخيانة الرخاء، هو (إسبانيا) فقد كانت هذه الدولة في القرن الخامس عشر الدولةَ الصناعية الأولى في أوروبا، وحين غزت أمريكا الجنوبية في القرنين السادس عشر

والسابع عشر عثرت هناك على الكثير من مناجم الذهب، وحين بدأ الإسبان يستمتعون بما استولوا عليه تراجع إحساسهم بالحاجة إلى التطوير وبذل الجهد، وهذا جعل الريادة الصناعية تنتقل إلى دول أوروبية أخرى، وصارت (إسبانيا) فيما بعد في ذيل الأمم الأوروبية في المجال الصناعي، وما زالت.

إن الدنيا دار ابتلاء بامتياز، ولهذا فنحن نحتاج إلى الوعي والإرادة والعزيمة في حالة الرخاء والسعة والمكنة، ونحتاج إليها في حالة الكرب والشدة والعوز، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

يحتاج توفير (الوسط الذهبي) إلى الكثير من القوانين، والكثير من التثقيف، والكثير الكثير من النزاهة والنيات الطيبة، وسأتحدث عن شيء من هذا في صفحات قادمة من هذا الكتاب بحول الله وطوله.

ثمن الضعف

نحن لا نختلف في أن هذه الدنيا دار ابتلاء بالقوة والضعف والخير والشر، لكن الذي نختلف فيه عادة هو الجواب على السؤال التالي: هل احتمالات نجاحنا في ابتلاء الخير والقوة أكبر، أو في ابتلاء الشر والضعف؟ وما الذي تؤكده الخبرة البشرية في هذا الشأن؟

لو عدنا إلى النصوص والأقوال المأثورة، فإننا سنجد منها ما يؤكد على إيجابيات امتلاك القوة، ومنها ما يشير إلى إيجابيات الضعف والقِلَّة، ومنها ما يفصِّل، ويشرط على ما نجده في قوله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

وهذه مقاربة سريعة في هذه المسألة:

١ - لو نظرنا في الأدبيات الموروثة عن أسلافنا، فإننا سنجد أن تمجيد الضعف والفقر والانكفاء على الذات هو الذي كان طاغياً،

وقد كان من المشهور لدى الصوفية- مثلاً- أن الذكر والعزلة والصمت والجوع أمور أساسية في حياة الصفوة من المتقين، كما أن الذي كان سائدًا في التربية هو التحفيز على السكون والسلبية وقمع النفس، وليس الحضّ على النمو والفاعلية، وقد نتج عن هذا ميل معظم الناس إلى التشابه ولزوم الحد الأوسط، ولهذا فإننا في معظم مراحل التاريخ لم نكن نفعل الأسوأ، كما أننا لم نكن نفعل الأفضل.

٢- نحن اليوم في عصر العولمة، والعولمة وضعية كونية تتيح للأقوياء والأغنياء والأفضل تعلمًا والأشد فاعلية أن يستثمروا في الفقراء والأميين والكسالى، وكل أصحاب الظروف الصعبة والكفاءات المنخفضة، وهذا يعني أن الضعف يؤهّل أصحابه ليكونوا مَواطن نفوذ لأصحاب القوة. والحقيقة أن (الضعف) كان على مدار التاريخ يُغري الأقوياء باستغلال المبتلين به، لكن الوضع اليوم أشد بؤسًا؛ فالمرء حين يكون فقيرًا بين فقراء، وجاهلاً بين جهلة وفوضويًا بين فوضويين، فإنه يواجه نصف مشكلة، لكنه سينتظر مشكلة كبرى حين يكون فقيراً بين أغنياء أو جاهلاً بين علماء، أو فوضوياً بين منظمين، إنهم حينذاك سيحلون كل مشكلاتهم على حسابه، وليس في هذا غرابة ما دمنا قد سلَّمنا بأننا نعيش في عالم تنازع البقاء.

٣- قالت العرب قديماً في أمثالها وحكمها: (المحاصَر لا يأتي بخير) وهذا القول يعني الضعيف، على نحو مباشر؛ لأن الضعف يضع حول صاحبه من الموانع والحواجز، ما يشبه الأسوار العالية

التي تحيط بمدينة من المدن، ولهذا فإن الضعيف يشعر بأنه مكبَّل ومعزول ومرتبك بسبب عدم قدرته على مواكبة عصره والتعامل مع تحدياته المتوالية. شعور الضعيف بانسداد الآفاق يؤثِّر في حياته وسعادته وإنجازه أكثر من تأثير الحصار على أناس داخل مدينة أو قرية؛ لأن الحصار الروحي والشعوري يُلحق الضرر بالبنية العقلية والنفسية العميقة للإنسان، وحين تُصاب البنية يهتز كل شيء.

٤- مشكلة الضعيف أنه كثيراً ما يجد نفسه عاجزاً عن حل مشكلاته الخاصة، وهذا يحوِّله إلى إنسان كَلٍّ على مجتمعه؛ إذ إن من سنن الله تعالى في الخلق أن الإنسان حين يعجز عن تدبير شأنه الخاص، يتحول هو نفسه إلى مشكل اجتماعي، وهذا ما نلمسه في حياة الكثيرين.

٥- إن من الملاحظ أن الإنسان لا يفكر غالباً في العطاء ومساعدة الآخرين إلاّ إذا كان في حالة حسنة من القوة والاستغناء، و إن من سنن الله في الخلق أن الضعيف والفقير ومن يملك ذكاءً أقل من المتوسط.... يظل ينتظر المعونة من الآخرين، وهذه مسألة مهمة؛ إذ إن معظم المجتمعات الإسلامية ضعيفة، ولهذا فإن الذين ينتظرون من أبنائها المساعدة كثيرون، على حين أن الذين يستطيعون تقديمها قليلون، وهذا أحد أسرار ضعف الأعمال الخيرية لدينا.

٦- من المهم أن ندرك أن السبب الرئيس لضعف الأفراد والأمم هو سبب ذاتي، يتمحور حول المعطيات التي تشكل حياتنا الخاصة والعامة، وتظل مساهمة الآخرين في تقدّمنا وتخلُّفنا على كل المستويات، مساهمة هامشية ومحدودة، وهذا ما نفهمه من قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[آل عمران:١٢٠]. وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

السبب الأساسي في ضعف الأفراد لا يعود إلى تواضع المواهب والقدرات، وإنما يعود إلى ضعف الإرادات واضطراب الرؤية للذات والمحيط، أما الأمم والشعوب والمؤسسات والهيئات.. فإن مشكلاتها الأساسية لا تكمن في شح الموارد والإمكانات، وإنما في سوء إدارتها والفساد الذي ينخر في عظامها.

بالإرادة الصلبة والرؤية الواضحة، وبالنزاهة، وبالشفافية والإبداع في إدارة ما هو متوفر من معطيات يتحول الضعفاء إلى أقوياء، وينتقل الناس من حال إلى حال.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

تأطير مجالات النهضة

في الساحات الثقافية جدال، لا يتوقف، ولا ينتهي حول أولويات الإصلاح والخطوات العملية الأولى على طريق النهضة، وذلك الجدل في الحقيقة مفهوم ومشروع، ولعلي أقوم هنا بتقديم بعض الأفكار التي تساعد على التخفيف من حدة ذلك الجدل، كما تساعد على جعله مثمراً، وذلك من خلال الحروف الصغيرة الآتية:

١ـ إن نقاش المهتمين بشؤون الإصلاح هو نقاش عالمي لا تُعرف بداياته، ولا أظن أنه ستكون له أي نهاية، وهذا يعود إلى اختلاف الزوايا التي ينظر من خلالها المتجادلون، كما يعود إلى خلفياتهم الثقافية، بالإضافة إلى التباين في مسلَّماتهم المنهجية ومفاهيمهم وما في حوزتهم من معلومات حول القضايا التي يبحثون فيها. ولا ينبغي أن ننظر إلى هذا الجدل على أنه شرّ خالص؛ فنحن حين نتجادل نكتشف الكثير من الأفكار المهمة، ونُنضج

الكثير من الرؤى الفجة، لكن لابد للنقاش حتى يكون جيداً من أن يثمر بين الفينة والفينة بعض المنطلقات والمحددات العملية، حتى لا نشعر أننا لا نحسن سوى التنظير والشكوى وتبادل الاتهامات...

٢- في كثير من الأحيان نشعر أن النقاش لم يستطع وضعنا على بداية أي طريق، وحينئذ يجد بعض المتسامرين/ المتجادلين في شؤون النهضة منفذاً للخروج من الحيرة والانسداد، وكثيراً ما يتمثل ذلك المخرج في الحث على أن يقوم كل واحد بما يستطيعه على صعيده الشخصي، وقد يتمثل بوعظ الجالسين على أن يهتموا بشؤون أسرهم وتربية أبنائهم، ولِمَ لا والأسرة هي الركيزة الأساسية في الحياة الاجتماعية، فإذا صلحت صلح المجتمع؟ وهذا الكلام صحيح من حيث المبدأ، لكنه عقيم على الصعيد العملي؛ فالذين توجَّه إليهم هذه النصيحة المهمة يعرفون أهمية تربية الأبناء وبعضهم قد ربّى وانتهى وصار جدّاً، وبعض الحاضرين لم يتزوج.. ثم إن إغلاق النقاش بالصيرورة إلى الاهتمام بالشأن الخاص أو بشأن الأسرة، أقول إن إغلاق النقاش بهذا قديم جداً، ولم يثبت قطُّ أنه قد أفاد أحداً، أو دفع في اتجاه إصلاح وضع أو حال.

٣- لو نظرنا في تكاليف الشريعة الغرّاء لوجدنا أنها في المجمل تنزع إلى الفردية، حيث التركيز الكبير على بناء الفرد وإصلاحه بوصفه الإنسان المكلّف في كل أحواله، إنه مسؤول أمام الله تعالى عن أفعاله سواء أكان عزباً أو متزوجاً، وسواء كان فقيراً أو غنياً،

يعيش في بيئة جيدة أو سيئة...ومن هنا فإن على كل واحد من المتجادلين في الشأن الإصلاحي والنهضوي أن يسأل نفسه السؤال التالي: هل أنا بأوضاعي الحالية على مستوى العقل والروح والسلوك والعلاقات الاجتماعية... صالح لأن أكون لبنة في البناء الذي أطالب بتشييده؟ إذا كان الجواب لا فليس هناك شيء أهم من السعي إلى أن يكون المنظّرون لصلاح الأمة قدوات يرى الناس فيهم ملامح المستقبل الذي يسعون إليه، وإلاّ أُصيبوا بالإحباط وشعروا بانسداد الآفاق.

٤- ليس نهوض الأمم من كبواتها بالشيء السهل واليسير، وإلاّ لما رأينا إلاّ الأمم الناهضة والمتقدمة، ولهذا أقول دائماً: إن الإقلاع الحضاري يحتاج إلى وقود روحي وجهد إنساني غير عادي، وإن العلماء والمثقفين والقادة وأهل التميز في تخصصاتهم وأعمالهم هم الذين سيشتغلون على إشعال شرارة الانطلاق، وهم الذين سيعملون على إنشاء الأطر والمؤسسات و ورش العمل والبرامج التي تستوعب جهود العاديين من الناس. هذه الطليعة في حاجة إلى بناء الأرضيات المشتركة وبلورة الخطوط العريضة للإصلاح إذا ما أرادت فعلاً تجميع الجهود الإصلاحية وتوجيهها نحو أهداف واضحة وواحدة، وإن الوصول إلى ذلك ينبغي أن يكون هو الهدف الأساسي من الجدال المحتدم اليوم بين الإسلاميين والساعين في التغيير من الاتجاهات الأخرى.

٥- إن كل الجهود التي تُبذل في إصلاح الأفراد وفي بناء المؤسسات الخيرية والتطوعية ستظل محدودة التأثير ما لم يحدث تغير واضح في النظم والقوانين التي يخضع لها الناس، بالإضافة إلى بلورة آليات لتطبيقها بالعدل وعلى الجميع، وتوفير ضمانات مختلفة تحول دون التفلّت منها أو استغلالها.

٦- السؤال الذي يفرض نفسه هو: هل هذه الأمور المشار إليها تحدث بالتعاقب أو بالتزامن؟

الجواب: لا شك عندي في أنه يجب أن تحدث على سبيل التزامن؛ فنحن لا نعيش في فراغ كامل، ولسنا فاقدين لأي رصيد نبني عليه: إن لدينا أشياء كثيرة صالحة، ولدينا إمكانات ومعطيات مقدرة، والمطلوب الاستفادة منها جميعاً.

٧- أحياناً تكون هناك حاجة ماسّة للتركيز على مجال معين وجعل النجاح فيه عبارة عن رافعة لكل المجالات الأخرى، وإذا كان لي أن أبدي رأيي في الرافعة التي يمكن أن نعوّل عليها في النهوض الحضاري، فإن تلك الرافعة في نظري لن تكون اليوم شيئاً سوى (التعليم)، التعليم في كل مراحله، فالتعليم الممتاز القائم على التوجيه الأخلاقي والجاد والعالي في مستواه يمكن أن يغيِّر في بنية الشخصية للأجيال القادمة.

هذا التأطير يشكل نواة لرؤية اجتهادية، يمكن إثراؤها وتطويرها؛ وفي المعالجة التالية شيء من هذا.

ثلاثية التقدم

تشكل بداية الانطلاق لمعالجة المشكلات مصدراً كبيراً للحيرة والاضطراب لدى الباحثين والقادة وكل المصلحين، وما يقال في هذا الصدد كثير، لأن كل واحد من هؤلاء يشخّص الواقع من زاوية قد تختلف عن الزوايا التي ينظر منها غيره، كما أن رؤيتهم لإمكانات الإصلاح وأولوياته أيضاً متباينة، وإن للاختلاف في كل ما ذكرناه سلبياته الواضحة لكنه من وجه آخر مفيد إذ يتيح لكل شعب من الشعوب أن يختار ما يلائم أوضاعه وظروفه.

في اعتقادي أن حركة الإصلاح في العالم الإسلامي تحتاج إلى أن تستهدف على نحو مركّز الحصولَ على اختراق كبير في ثلاثة أمور أساسية هي:

١ـ الأسرة: من الواضح أن لدينا ملايين الأسر التي تعاني من ضعف التفاهم والانسجام بين الأبوين بسبب الدفق الثقافي الأجنبي

الذي نتعرض لـه اليـوم حيـث أخـذت النظـرة إلى الحيـاة الأسريـة في التبدل، وحلَّت الأثرة في موضع الإيثـار، وتراجـعَ اهـتمام الزوجـات بـالأزواج، وترتـب عـلى ذلـك ارتفـاع في نسـب الطـلاق وفي نسـب الخيانات الزوجية.. كما أن هناك أعـداداً هائلـة مـن الأسر المرتبكـة في تربية أبنائها ولاسيما المراهقين منهم، مـع أن الأسرة هـي التـي تصـوغ شخصية الطفل، وهي التي تؤسس لعقليته وعواطفه و اتجاهاته، ولهذا فإننا في حاجة إلى أعداد كبيرة من المؤسسـات والـبرامج التـي تسـاعد الأسرة على القيام بمهامها الجليلـة، ولـن يحـدث ذلـك مـا لم ننظـر إلى التقدم بأوضاع الأسرة المسلمة على أنه أولوية ملحَّة.

٢ التعليم: لا تستطيع أمة أن تحرز اليوم تقدماً حضارياً لافتاً ما لم تحرز تقدماً ظاهراً على صعيد التعليم في كل مراحله وقد بات مـن الواضح أن التعليم الجيد هو التعليم الذي يتسم بالجدية والعمليـة، وهو مكلف جداً من الناحية الماديـة، لكـن التعلـيم الـرديء أعظـم كلفة منه و إنما على المدى البعيد. إصلاح التعليم لا يحتـاج إلى ضـخ المزيد من المال فقط، ولكنه يحتاج قبل ذلك إلى الرؤيـة النافـذة و إلى التحرر من المركزية و(البيروقراطية) كما يحتاج إلى مسـاهمة الأهـالي على نحو فعال. التعليم السيِّئ يُفسد الخلق، ويمد شريحـة البـاطلين عن العمل بالمزيد المزيد من الشباب اليائس والمحبط وغير المؤهل.

٣ مكافحة الفساد: هناك إجماع عالمي من لدن الجميع على أهمية مكافحة الفساد، و قد بذلت دول كثيرة جهوداً حثيثة في ذلك، لكـن

النجاحات محدودة، وفي اعتقادي أن المطلوب الأساسي ليس إنشاء المزيد من الأجهزة لمطاردة الفاسدين وإنما العمل على توفير وضعية قانونية وحقوقية وإعلامية يكون الفساد المالي والإداري معها صعباً، وهذا يتطلب درجة أعلى من الشفافية، كما يتطلب قضاء أكثر حسماً واستقلالاً ونزاهة، ويتطلب أن يتاح للكل مراقبة الجميع، وهذه الأمور بالضبط هي التي جعلت الفساد المالي في صدر الإسلام محدوداً، وهي نفسها التي تجعل الدول الإسكندافية اليوم، من أقل الدول في معاناة الفساد. انتشار الفساد يعني إهدار قيمة الكفاءة الشخصية، ويعني انقسام المجتمع إلى طبقتين: طبقة صغيرة يُفسدها الغنى وطبقة كبيرة يُفسدها الفقر، كما يعني ضعف الشعور بالانتماء الوطني، إلى جانب شعور عدد كبير من الناس بمرارة الظلم.

الجاذبية الثقافية

لا نعني بالثقافة المعرفة، وإنما نعني هنا ذلك الجوَّ المكوَّن من مجموعة العقائد والأفكار والمفاهيم والنظم والأخلاق والقِيَم والعادات والطُرُز السائدة في مجتمع محدد، أو بعبارة أخرى: أسلوب الحياة السائد في بيئة معينة والأسس الفكرية والنفسية والاجتماعية التي يقوم عليها ذلك الأسلوب.

أما الجاذبية الثقافية فنعني بها قدرة الثقافة على توفير درجة جيدة من إرضاء أبنائها بالأوضاع والأحوال السائدة، بالإضافة إلى لفت انتباه أبناء الثقافات الأخرى ودفعهم في اتجاه تقليد سلوكيات أبناء الثقافة الجاذبة.

أثبتت الجاذبية الثقافية على مدار التاريخ الإسلامي أنها الوسيلة الأفضل لنشر الإسلام ومبادئه وقِيَمه؛ فقد دخل في هذا

الدين أعداد هائلة من البشر من غير أن يـروا عسـكرياً واحـداً مـن جيوش المسلمين، وقد تم انتقالهم إلى الإسـلام بـبطء؛ حيـث تمثّـل الناس مبادئه بأناة ومن غير ردود أفعال تُذكَر من الثقافات الوطنيـة التي كانت سائدة آنذاك، ولم يكن الأمر بتلك السلاسة وذلك النقاء في البلدان التي فُتحت عن طريق القتال.

دعونا نتساءل الآن: ما السّمات الأساسية التي ينبغي أن تتـوفر في أيّ ثقافة حتى تصبح جذابة؟

في مقاربة أولية نقول: ربما كان أهم تلك السمات الآتي:

١ - التضحية: وهي تعني وجود شريحـة واسـعة في المجتمـع، تملك القدرة على التخلّي عن بعض ما تملك، وتبذل شيئاً من جهدها ووقتها في سبيل تحقيق أمور خيِّرة لا تعود عليها بنفع مباشر. ويـدل على هذه الشريحة ما تتمتع به الأمـة أو المجتمـع مـن مؤسسـات «لا ربحية»، تسدّ حاجات الناس، وتستدرك عـلى القصـور الموجـود في نظام العدالة الاجتماعية السائد. ولا شـك أن الـدول المتقدمـة تُعـد غنية جداً بهذه المؤسسات اليـوم؛ وهـذا مـا نلمحـه في المجتمعـات المسلمة أيام ازدهار الحضارة الإسلامية.

٢ - العدل: حيث يغلب على ظـنّ النـاس أنهـم قـادرون عـلى الوصول إلى حقوقهم كاملة دون رشوة أو واسطة، وبسرعة مقبولـة وبناء على قواعد واحدة تطبق على الجميع؛ وهـذا يكـون في أحسـن

حالاته حين يتوفر نظام قضائي حرّ ومستقل، ويتولى إصدارَ الأحكام أشخاص نزيهون، أو أشخاص يدفعون ثمناً غالياً في حالة إصدار أحكام جائرة ليس لها أي مخرج قانوني.

٣- التعاون: والذي يعني وجود أرضية عقدية وأخلاقية تجعل تواصل الناس بعضهم مع بعض واسع الانتشار؛ فالمؤسسات الخيرية الكثيرة والمتنوعة تعني على نحو بَدَهي وجود أعداد كبيرة من الناس القادرين على التفاهم والتعاضد في سبيل إنجاز أشياء مشتركة لخير الجميع.

٤- الأمانة: وهي تعني نمو جوانب خلقية واجتماعية جيدة إلى حدود ومستويات عالية. الأمانة التي أعنيها هنا هي التي عنتها ابنة شعيب حين قالت لأبيها عن موسى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. الأمانة تعني الصدق والمصداقية والثقة وحفظ الأسرار والمحافظة على الحرمات؛ وهذه الأخلاق ذات قيمة جوهرية في المنهجية الإسلامية وفي التربية الأخلاقية لدى المسلمين.

٥- الجدّية: المقصود بالجدّية، توفّر نُظم وتقاليد وأعراف وأوضاع، ترفع عتبة النشاط أو ترفع سوية الاهتمام بالعمل والإنتاجية إلى مستويات عالية تحاكي ما هو متوفر لدى الأمم الصناعية الكبرى. الأمم الجادة تهتم بالتفاصيل، وتفكر في التخلص من دقائق المشكلات، وتحتاط في معظم شؤونها.

٦- العملية: الثقافة التي توصف بأنها ثقافة عملية يقل الكلام لدى أبنائها على مقدار تكاثر الأساليب الفنية التي تنمّي من خلالها الجوانب المختلفة من حياتها العامة، كما أنها تعالج بواسطتها المشكلات المعاصرة على نحو حاسم وفعّال.

هذه السّمات هي موضع إجماع بين كل الأمم، وجميع الشرائع تحثّ على التحلّي بها، ولهذا فإن الثقافة التي تتوفر فيها هذه الصفات على نحو ظاهر وقوي؛ تجذب إليها أبناء الأمم الأخرى الذين لا يجدون في ثقافاتهم مثيلات لها. وهذا الجذب الثقافي يزداد اليوم بسبب ما توفره وسائل البثّ والاتصال الحديثة من تواصل وتقارب عالمي على نحو لم يسبق له مثيل.

الحديث عن الجاذبية الثقافية يدعونا إلى الحديث عن (الافتتان الثقافي) الذي يعني انبهار أبناء أمة من الأمم بما لدى أبناء أمة أخرى من قِيَم وأخلاق وأوضاع ثقافية، وإنها لفتنة شديدة أن تجد المبادئ التي يجب أن تتمسك بها ضامرةً في مجتمعك، مزدهرةً لدى عدوّك أو منافسك!

كل ما قلناه عن الجاذبية والفتنة الثقافية، ينطبق على الأفراد، كما ينطبق على الأمم والشعوب، وإن من واجبنا إذا ما أردنا تحصين الأجيال القادمة من التبعية الثقافية للآخرين أن نبذل كل ما في وسعنا من أجل إنعاش القِيَم التي أشرنا إليها وترسيخها في الحياة الإسلامية، وإلا فإن هويتنا ستكون مهددة، وإن التديُّن الحق يدعو إلى بذل ذلك الجهد تعبُّداً لله تعالى وتقرباً.

صانع المرآة

ينقضي العمر، وربما تنتهي دورة حضارية كاملة، والناس يسألون أنفسهم: من نحن، وماذا نريد؟ ولماذا يحدث لنا كذا وكذا؟ وهل هـذا أنفع لنا أو هذا؟

أسئلة كثيرة تبدأ، ولا تنتهـي حـول مسـائل جوهريـة في حياتنـا، وتقلّ هذه الأسئلة، وتتضاءل في حالات الركـود الحضـاري، وتتـدفق كالسيل الجارف، في بـدايات الانطلاقـات الحضـارية الكـبرى، وكلـما حدث تواصل عالمي واحتكاك أممي أكبر...

الإنسان متشوق جداً إلى فهم نفسه وفهم مكانتـه ودوره في بيئتـه وعصره، لكنه كلما حاول ذلك وجـد أن عتـاده لبلـوغ مـا يريـد غـير مكتمل، بل يجد نفسه مفتقراً إلى مقارنة ما لديه بـما لـدى غـيره، وإلاّ لم يحصل على شيء ذي قيمة. ولعلي أتحدث هنـا عـن هـذه القضـية عـبر الحروف الصغيرة التالية:

١ - الطبيعة البشرية كينونة غامضة، واكتشافها يتم بالتدريج ومن خلال الظروف والمعطيات الجديدة، فنحن لانعرف كل شيء عمّا يُدخل علينا البهجة، ولا كل شيء عما يُزعجنا، كما أننا لانعرف ماينبغي أن نعرفه عن الأمور التي تحرّضنا على الصلاح والإنتاجية العالية، ولا ما ينبغي أن نعرفه عما يدفع بنا نحو الانحراف والانحطاط والخمول، ومن أجل تلمّس هذا يشتغل ألوف الباحثين، وعلى الرغم من كثرة ما أنتجوه من بحوث وأفكار في هذا الشأن إلاّ أن ما هو مجهول مازال أكثر ممّا هو معروف، ومازال لدينا الكثير من الأسئلة التي تبحث عن أجوبة.

إن الناس حين يوضعون في ظروف جديدة مثل الثراء الفاحش، أو الفقر الشديد أوالخطر العظيم يكتشفون من خلال ردود أفعالهم القيمَ التي يؤمنون بها ونوعية علاقتهم بالحياة والأحياء، ومن خلال كل ذلك يعيدون تعريف أنفسهم، وينشأ عن كل ذلك رؤية جديدة للمستقبل، وتفسير جديد للماضي.. يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه مشيراً إلى التغيرات التي حدثت بعد وفاة النبيﷺ: «ما منّا إلاّ نال من الدنيا، ونالت منه، إلاّ عمر وابنه». نعم إن الظروف الجديدة تحمل معها دائماً اختبارات جديدة، ونتائج الاختبارات دائماً متفاوتة.

٢ - أنا أشبِّه محاولاتنا لفهم أنفسنا ومحيطنا، وما الذي يجب علينا فعله بشخص يسير لأول مرة في صحراء مترامية الأطراف وخالية من العلامات؛ حيث لايُرى سوى سماء ملبّدة بالغيوم

وأرض مستوية وغير معبّدة، إنه في هذه الحالة بأمس الحاجة إلى من يحدّد له وجهته، ويدلّه على طريق يبلغه مأمنه حتى يخرج من التيه الذي وجد نفسه فيه، ولايُشترط أن يكون من يرشده على صواب، بل قد لايكون لدى ذلك الساري أي وسيلة للحكم على مدى صحة ما يشير عليه به...

هكذا نحن دائماً بحاجة إلى مرآة نرى فيها صورتنا، وإن صانع تلك المرآة هو الذي يحدد شروط انعكاس صورتنا عليها، وحين كنا نقود مركب الحضارة كنا نحن صنّاع المرآة، وكنا نحن من يحدّد للناس شروط العيش الكريم، كما كنا ندل العالمين على طرق الخلاص، وعلى سبيل المثال، فقد كان من المألوف في إيطاليا في القرن الثالث عشر الميلادي أنه لايتم تعيين أمين لمكتبة عامة، مالم يكن يجيد العربية؛ لأن كثيراً من محتويات المكتبات كان باللغة العربية. إذن قيادة الأمم لاتتم من خلال شن الحروب عليها، ولا من خلال استغلال ضعفها، وإنما تكون من خلال الأهلية الحضارية لتعريفها على ذواتها، وتعريفُها على ذواتها لايكون إلاّ من خلال تقديم الكثير من المثل والأفكار، وإنتاج الكثير من الأشياء التي تعتقد تلك الأمم أن من الصعب عليها أن تعيش من غيرها، وهذا ما تفعله الدول الصناعية اليوم.

٣- تشهد النخب الثقافية لدينا اليوم صراعاً واضحاً حول تحديد هُويّة الأمة، ويقوم جدل واسع حول جوهر العلاقة التي

ينبغي أن تقوم بين ما لدينا من عقائد وقيم وموروث ثقافي من جهة وبين النهضة ومتطلباتها وتكاليفها من جهة أخرى، ونحن لا نتوقع لهذا الجدل أن يجد أي نهاية، مادمنا لم نُكمل اكتشاف أنفسنا ومعرفة ما نريده على وجه دقيق، لكن أود أن أقول: إن الدفاع عن الهوية من خلال شرح فضائلها وبيان أهميتها وفوائدها لن يجدي كثيراً في مقاومة طوفان الأفكار والسلوكيات الغازية؛ فقد أثبتت التجارب التاريخية للأمم أن الدفاع المباشر عن الثقافة والهوية والموروثات الروحية والخلقية، وحث الناس على التمسك بها يظل ضعيف التأثير، وذلك لأن كل جديد يغرينا بتجريبه، وحين نجربه، فقد نجد فيه ما لم نجده في القديم، ومن هنا فإن خير وسيلة للحفاظ على الهوية هو أن نشارك في بناء الحضارة، وأن نساهم في صناعة المرآة عوضاً عن إدمان شرائها؛ فالروحي والمعنوي متداخل تداخلاً شديداً مع المحسوس والمادي، وحين نتمكن من إنتاج المادي على وجه حسن وفق شروط صالحة، فإن المتوقع أن يتحسن مستوى الروحي، والعكس صحيح.

الانفتاح على الذات

تدل الخبرة البشرية على أن هناك إمكانية مستمرة لأن ننشغل بالمهم عن الأهم، وبالقشور عن اللباب، وبأعراض المرض عن المرض نفسه..هناك إمكانية مستمرة لأن ننسى أنفسنا، وننشغل بالأشياء التي تحيط بنا، ومن هنا فإن القرآن الكريم يوجهنا في عدد من الآيات إلى ضرورة الانفتاح على الذات أولاً، ومن خلالها نعبر إلى العالم بأسره، ويمكن أن نجد ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وقوله: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾[آل عمران: ١٢٠].

إن الانفتاح على الذات يعني الانفتاح على الممكن والمحوري والمعقول وعلى دائرة التأثير، أما الانفتاح على الآخرين فهو انفتاح على الهامش والمظنون والمتخيّل وعلى دائرة الاهتمام، وإن من الملاحظ اليوم أن كثيراً من الكتّاب والإعلاميين والدعاة مشغولون ببيان مساوئ الإمبريالية والصهيونية، ومشغولون ببيان أزمات و مشكلات المخالفين والمنافسين والمناوئين، مع إهمال شبه تام للانفتاح على الشأن الداخلي، وما فيه من قضايا شائكة، وعلل مستحكمة تحتاج إلى الكثير من المعالجة؛ والحجة دائماً جاهزة، وهي أننا نمر بمرحلة دقيقة جداً، وأن أمم الأرض قد تكالبت علينا، ومن ثم فإن المطلوب هو تسليط الضوء على مكائدهم ومؤامراتهم، وأن من الخيانة لمصالح الأمة تعكير الأجواء الداخلية بإبراز الأخطاء ونقاط الضعف.. بعبارة أخرى نحن في حالة طوارئ، وعلينا أن نحشد كل الطاقات لإطفاء الحرائق التي يُشعلها الأعداء، لكن من اللافت أن حالة الطوارئ هذه قد تستمر أجيالاً عدة، ومع طول الزمن لا يتوفر لدينا أي شعور أننا أطفأنا شيئاً من النيران التي أشعلها الأعداء، أو تلك التي أشعلناها بسبب أخطائنا وخطايانا!

ولعلي أقارب هذه المسألة في النقاط الآتية:

١ـ إذا نظرنا في سيرة نبينا وتأملنا في أحاديثه العطرة، فإننا نجد أن الشغل الشاغل له لم يكن ما يفعله الأعداء، ولكن ما يحدث داخل المجتمع الإسلامي نفسه، ولا أبالغ إذا قلت إن أكثر من (٩٥٪) من

الأحاديث النبوية كان يركز فعلاً على الشأن الداخلي، مع أن المخاطر التي تعرض لها المجتمع الإسلامي الناشئ كانت أعظم بكثير مما نتعرض له اليوم، ويكفي في الدلالة على هذا قوله في دعائه يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبَد في الأرض». إن الأمم العظيمة ترتد إلى الداخل بالتقوية والإصلاح والتقويم حين تشتد عليها ضغوط الخارج.

٢ـ هذا الاندفاع المذهل نحو الخارج ومعالجة ما هو أشبه بالقشور في الداخل يهدف إلى شيء محدد، هو ألاّ يلتحم الوعي النقدي الناجز بالواقع المعيش؛ لأن الذي سيتكشّف عنه ذلك الالتحام يؤذي الكثير من المصالح لهذه الفئة أو تلك (النقد لايؤذي على نحو عام إلاّ الحالات المريضة)، مع أن من الواضح أننا من غير النقد والوعي النقدي لن نتمكن من فهم جوهر القيم التي نؤمن بها، كما أننا لن نتمكن من فهم القضايا التي نعيش من أجلها، ولا فهم المشكلات التي نعاني منها، وما ذلك إلاّ لأن النقد الاجتماعي ليس وسيلة لمقاومة البغي والظلم والانحراف فحسب، بل هو وسيلة لاكتشاف الذات، وإثراء الحياة، وتحقيق المعنى العميق لحرية الإنسان. إننا من خلال النقد الأصيل والعميق نكشف عن الكثير من الحقائق التي يُراد لها أن تُنسى، وبكشف الحقائق يتألف في داخلنا الكثير من المعاني النبيلة والمهمة؛ فالحقائق الساطعة تحرّر البشر من الزيف والوهم والخوف...

٣ـ الانفتاح على الذات وعلى الداخل يتطلب أن نطرح الكثير من الأسئلة: أسئلة تمس الموضوع وأسئلة تمس الذات؛ فضعف الأخلاق، وضعف التعليم، والصناعة، والتماسك الاجتماعي.. يشتمل على الكثير من الأسئلة الموضوعية ذات البعد الفني والعلمي.. ولا بد إلى جانب بحثها من طرح أسئلة تتعلق بالناس الذين كانوا السبب في الانكسارات التي نعاني منها، كما تتعلق بالثقافات والعادات والتقاليد و الضغوط الاجتماعية التي دفعت باتجاهها. إن المجتمع أشبه بالطفل يخسر الكثير من المناعة والخبرة حين نحوطه بعناية زائدة، وإن حرمان مجتمعاتنا من وضع النقاط على الحروف في كثير من الأمور لا يعنى سوى الهشاشة والضحالة، و لن يؤدي بنا إلاّ إلى العيش على هامش الأمم وهامش العصر!

٤ـ يتطلب الانفتاح على الداخل نوعاً قوياً من الإحساس بالفروق بين الأشياء المتشابهة، وإلاّ كانت الفائدة محدودة، نحن نحتاج إلى أن نفرق بين الحرية والفوضى، والمحافظة والجمود، وتطبيق القوانين والاستبداد، والانفتاح وفقدان الهوية، والتيسير وتمييع الأمور.. لاشك في أن فتح عيوننا على الخارج مطلوب، ولا شك في أن مقاومة العدوان أيضاً مطلوبة، لكن علينا أن ندرك جيداً، أن تسلط الأمم الأخرى علينا ما كان له أن يكون لولا ضعفنا الذاتي وتمزقنا الداخلي.

أزمة كفاءات

حين يتحدث الناس عن أزمة، فإن من الطبيعي أن يكون هناك اختلاف في تاريخ تلك الأزمة وفي أسبابها وحجمها والمخرج منها... وما ذلك إلا لأنهم ينظرون إلى الوضع من زوايا مختلفة، ويستخدمون مفاهيم ومعايير متباينة، وإن من سنن الله تعالى أن كثيراً من الأشياء يكون في مرحلة من المراحل عبارة عن أمنية وحلم، وإذا به في مرحلة تالية يتحول إلى عبء ومُشكِل، وعلى كل حال فإن الحديث عن الأزمات يُعدُّ شيئاً إيجابياً، لأننا في الغالب لا ندرك أن هناك أزمة إلا من أفق ما لدينا من حلول لتلك الأزمة، حتى إن من الممكن أن يقال: كلما نضجت الحلول المطروحة لمشكلة من المشكلات تحسَّنت بصيرتنا في رؤيتها، وقوي الإجماع على الحكم بوجودها..إن وجود الأزمات في حياتنا شيء مألوف، والعالم عبر التاريخ تقدَّم من خلال الأزمات أكثر من تقدُّمه من خلال الرخاء؛ ولله تعالى في خلقه شؤون.

نحن نعرف أن الدعاة والمثقفين المسلمين عامةً دخلوا مجال الإعلام في وقت متأخر نسبياً، وكان تأخُّرهم الأكبر في الدخول إلى الإعلام المرئي، وذلك لعدد من الأسباب المتنوعة، ونحن نشاهد اليوم توجُّهاً واضحاً إلى إنشاء الفضائيات

الإسلامية، وهذه ظاهرة تبعث على الاغتباط - في الجملة - وكأن الناس أدركوا أنهم فرَّطوا في الماضي في هذا الشأن، فأخذوا يعوِّضون اليوم عن ذلك، ويستدركون شيئاً مما فاتهم. التلفاز صناعة غربية، ولم يتم إنشاؤه في الأساس من أجل التعليم، وإنما من أجل الترفيه وملء أوقات الفراغ بشيء مسلٍّ، ومن هنا فإن استخدامه في الدعوة يحتاج إلى مهارة وكفاءة وإبداع.. الأزمة التي تلوح في الأفق الآن تتمثل في حاجة عشرات الفضائيات الإسلامية إلى متحدثين من الطراز الرفيع؛ حتى يتمكنوا من جذب المشاهدين لمتابعة تلك الفضائيات، وإن الذين يُحسنون التحدث إلى الناس في الإعلام المرئي دائماً قليلون بسبب حساسية هذا النوع من الإعلام وقسوة شروط النجاح فيه، وإذا تأمَّلنا في أحوال كثير من الفضائيات الإسلامية، فإننا سنجد أنها تعاني من ضعف الميزانيات، حيث إن أثرياء المسلمين لم يكتشفوا بعدُ أهمية التحولات الاجتماعية التي يُحدثها الإعلام اليوم، وهذا الضعف في التمويل أدَّى بالطبع إلى ضعف الأجهزة الإدارية وإلى العجز عن اجتذاب الكفاءات الإسلامية المتوفرة، وهي على كل حال شحيحة، وهذا سيضطر كثيراً من القنوات إلى أن تخفض شروطها ومواصفاتها في جودة المعروض وفي سويَّة المتحدثين، بل إن

تلك القنوات دخلت فيما يشبه الحلقة المفرغة، فهي تحتاج إلى المشاهدين كي تحقق أهدافها في نشر الدعوة، وهي في حاجة إليهم حتى تجتذب المعلنين التجاريين الذين سيدفعون المال المطلوب لاستمرار القنوات في عملها، واجتذاب المشاهدين لا يتم إلا من خلال تميُّز ما تقدِّمه القنوات وعلوٍّ مستواه، وهذا يحتاج إلى مال، فوقع الدور، كما يقول المناطقة! إن المتحدِّث حين ينتمي إلي تيار معين، فإن إخفاقه يسيء إلى سمعة ذلك التيار، ويشوِّه الصورة المنطبعة عنه في أذهان الجماهير، وهذا ما يحدث الآن، حيث إن بعض المتحدثين في الفضائيات يحاولون التأثير في الناس عن طريق الإغراق في الحديث بالعامية واللهجات المحلية، وبعضهم يحاول ذلك عن طريق التنميق اللفظي المجوَّف من الأفكار والمعاني العظيمة وبعضهم يعمد إلى سَوق الحكايات والغرائب... والقادم أعظم!إن من المهم أن ندرك أن الإنسان كائن مستهلك، يستهلك الأفكار والأساليب والأشكال. كما يستهلك الأغذية والملابس، أي: إن المتحدث الذي يثير إعجاب الناس اليوم قد لا يستطيع إثارة إعجابهم غداً إلا إذا تجدَّد هو، أو قُلْ: استمرَّ في التجدُّد. ما العمل؟ لا نستطيع بالطبع أن نحصل على حلول مثالية في بيئة غير مثالية، لكن تظل هناك فرصة لعمل شيءٍ ما، ومما يمكن عمله الآتي:

١- التركيز على الكيف، وليس على الكم؛ إذ إن بثَّ قناة مدة ست ساعات من البرامج الممتازة خير من بثِّ برامج هزيلة على مدار الساعة.

٢- نحن نريد أن يتجه من يريد الانخراط في الإعلام المرئي إلى أن يفكر في إمكانية فتح مؤسسة للإنتاج الإعلامي عوضاً عن إنشاء فضائية، حيث إن التكاليف أقل، والحاجة إليها ماسَّة.

٣- يشكل التدريب أحد الحلول لندرة الكفاءات، وربما صار المطلوب أن يُقدَّم لمتحدث الفضائية نوع جديد من التدريب، هو التدريب الفكري، أي: العمل على ارتقاء المضمون الذي يطرحه المتحدث وطريقة صياغته الداخلية وإثرائه بالمحاكمات العقلية النيِّرة، وهذا غير مألوف لدينا، لكن يبدو أنه لا بد من الصيرورة إليه.

٤- الإبداع في البرامج والإبداع في المعالجة والإبداع في فهم الذائقة الثقافية للمشاهد والتكيف معها... كل هذا مما تمسُّ إليه الحاجة، وقد يكون من الملائم أن تعلن فضائية أو مجموعة فضائيات إسلامية عن جائزة سنوية تُعطَى لأفضل البحوث التي تساعد على تطوير البثِّ الفضائي الإسلامي.

الانتباه إلى وضعية الإعلام المرئي اليوم من الأمور المستعجلة التي لا تحتمل التأخير، والتعاون في سبيل معالجة هذه الوضعية مطلوب من كل القادرين عليها، والله المستعان.

مسؤولية النخبة

ترتبط التبعية بالجهل والضعف، وترتبط الريادة بالقوة والمعرفة، ويقدِّم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام النموذج الأسمى للرائد الحقيقي، لأنهم يجمعون بين نفاذ البصيرة وقوة الروح، إنهم بما أكرمهم الله به من الوحي والعلم يتفوقون على مجتمعاتهم في دقة التقدير لمشكلات تلك المجتمعات وحاجاتها الأساسية، وهم بما أكرمهم الله به من الأهلية والعصمة يتمثلون مبادئهم، ويقدِّمون في كل تصرفاتهم وعلاقاتهم التجسيد العملي لرؤاهم وأحاسيسهم، وما أُمروا بتبليغه للناس، وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله فقالت للسائل: أتقرأ القرآن؟ قال: نعم. قالت: كان خلقه القرآن. إنه سؤال وجواب في غاية الدقة وغاية الاختصار، لكنه يشرح قضية في غاية الأهمية والضخامة. إن ما تحتاجه أمة الإسلام من مثقفيها هو أن يكونوا رواداً حقيقيين لا حملة أفكار ومعلومات

فحسب. لا ريب في أن المعرفة قوة، وأن العلم يمنح صاحبه تفوقاً ظاهراً على من حوله ممن لا يعلم، لكن العالم أو المثقف لا يستحق أن يكون في جملة الرواد إلا إذا تحمَّل عن طيب خاطر أعباء الريادة الفكرية والاجتماعية، ويأتي في مقدمة تلك الأعباء حمل هموم الأمة، وإعطاؤها مساحة واسعة من اهتماماته ومشاغله، وينبغي أن يكون في طليعة تلك الاهتمامات تحرير روح الجماعة، وتحسين ملكة الفهم، والعمل على تحسين فرص الاختيار أمام الشباب بالإضافة إلى العمل على منح الناس رؤية واضحة لما هو كائن، وما ينبغي أن يكون. وإني أشعر أن الغموض، يقتل الروح، ويقتل الحيوية، كما يقتل المكانُ الزمان، وكما يقتل الامتدادُ الاتجاه، وإن الغموض يلف اليوم كما لم يحدث من قبل المقصد الأعظم للنشاط الإسلامي، وهو الفوز برضوان الله تعالى حيث إن العولمة، تنشر بين الناس ما يشبه (السرطان) على مستوى الأخلاق والسلوك، وقبل ذلك على مستوى الروح والوجدان، وهو يتمثل في إغراق وعينا في تفاصيل واهتمامات جزئية، لا نهاية لها على حساب المبادئ والأصول الكبرى وكل ما هو أساسي ومصيري، وإن واجب المثقف الرائد، يتمثل دائماً في جعل الأمور الجوهرية تطفو على سطح الوعي، ولن يستطيع ذلك إلا من خلال معادلة معقدة، تقوم على فهم عميق لقضايا الأمة مع الإبقاء على مساحة، تحول دون اندماج وعيه في المجتمع وتماهيه بالتالي معه، ولن يستطيع توفير تلك المعادلة من خلال الكلام المنمق، ولكن من

خلال الإثبات أنه ذلك الشيء الذي احتفظ بصلاحه بعد تهدم البناء، وذلك الشيء الذي يجد فيه الوعي الجديد كهفاً يأوي إليه.

إن الحبل السريّ الذي يصل الثقافة بالحياة، يتمثل في صلاحيتها لخدمة الناس ونفعهم، وإن الثقافة تذبل، وتموت إذا افتقدت وظيفتها في تحسين نوعية الحياة، وإن الحبل السري الذي تتغذى ريادة المثقف عن طريقه، يتمثل في ذلك التأبي على الخوض مع الخائضين والانجراف مع المنجرفين، إنه لا ينغمس في الترف حين يكون الترف الشرارة التي ستؤدي إلى احتراق المجتمع، ولا يصبح جمَّاعة للمال حين يصبح تكديس الثروات مصدراً للتحلل الخلقي ونضوب معاني الرجولة... ومن ذلك التأبي وذلك الصمود، يصبح المثقف مصدراً لإشاعة المصداقية وحارساً أميناً على ما تبقى لدى المجتمع من رمزيات الثقة.

إني أشعر أن مجتمعاتنا تذوب بين أيدينا، ونحن ما بين عاجز ومذهول، وما بين راكض للحصول على جزء من الكعكة المسمومة ومشغول! لكن سيظل هناك دائماً وأبداً من يأخذ على عاتقه توضيح ملامح سبل الحق والنجاة، ومن يأخذ على عاتقه إبقاء الراية خفاقة في الأعالي مهما ساءت الظروف والأحوال، وهذا الصنف من الصفوة هم الحجة علينا، وهم الخميرة التي يحتاجها عجيننا في كل زمان ومكان، إنهم صناع التقدم الذين يمهدون السبل للأجيال الجديدة كي تكمل المسيرة.

فضيلة التعاطف

حين يعيش الناس في قرى صغيرة وأحياء ضيقة، فإنهم يجدون أنفسهم منخرطين في أعمال تعاطفية وتعاونية على نحو غير مقصود، وهذا ما كان يلمسه الناس على نحو واضح في الريف والمدن الصغرى، أما اليوم فقد تغير كل شيء؛ حيث اتسع العمران، وتعقدت العلاقات، ونمت مساحات الحرية الشخصية إلى حدود الأنانية والخوف من الانفتاح على الآخرين والخوف من الاتصال بالأغراب.

وإذا نظرنا إلى «السلام» بوصفه رمزًا للمشاركة المعنوية والتعاطف الأولي المجاني؛ فإننا سنجد تقلص أعداد المهتمين به؛ فهناك من لا يسلِّم إلا على بعض من يعرف، وهناك من لا يرد السلام؛ لأن الرد يقلل من درجة انشغاله بما هو منشغل به، وهناك مع الأسف الشديد من صار يبدي نوعاً من الضيق والانزعاج ممن يسلِّم عليه بوصف السلام شيئاً يحمل معنى العدوان على الكينونة الشخصية!

هذه الحالة ترمز إلى أكثر مما نعده تركاً لسنة أو تقصيراً في أداء واجب؛ إنها ترمز في الحقيقة إلى نوع من وهن الرابطة المشتركة التي

تجعل من الناس في البلدة الواحدة كياناً متواصلاً متراحماً متعارفاً. وقد وصلنا إلى ما هو أشد إثارة للقلق من ذلك؛ حيث إننا نشعر اليوم أكثر من أي وقت مضى أن كلمة «الأخوة الإسلامية» التي سوّدنا في ذكر فضائلها صفحات كثيرة صارت شبه فارغة من أي معنى على الصعيد العملي وشبه مهملة على الصعيد التربوي والتنظيري.. ولست أريد هنا الخوض في ذكر أسباب هذه الوضعية، لكن أحب أن أشير إلى بعض ما يجب عمله على صعيد تحسينها:

فلسفة الإحسان إلى الغير:

١- حين يسود الجفاء ويضعف التواصل والتعاطف بين أبناء البلد والعمل الواحد فإن الناس ينظر بعضهم إلى بعض بعيون متوحشة، ويصبح تلاقي عيونهم مصدراً للضيق والانزعاج، وتقع المشكلة أو يقع الخلاف حول شيء في غاية السهولة، كما يصبح رأب الصدع شاقًّا وعسيراً، ومن هنا فإن إحسان الواحد منا إلى غيره من الإخوان والجيران والزملاء، يستهدف أولاً تطهير نفسه وإعداد قلبه لتلقي مسرات البذل والتضحية، وهي مسرات ذات طعم فريد ومغاير تماماً لمسرات الاستحواذ وتلقي المعونة.

٢- إن المتعاطف مع غيره يحسن إلى نفسه أولاً، ويتلقى جزاء ذلك الإحسان على نحو فوري ومباشر، ولنتأمل في قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وحين يعلم المسلم أن الله جلّ وعلا هو الذي يتلقى الصدقة ليجزي عليها أفضل الجزاء؛ فإن مشاعره وآماله تتحرك في اتجاه الاغتباط بالإنجاز الذي حققه، وهذا المعنى هو ما يشعّه قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[التوبة: ١٠٤].

٣- إن الأعمال الخيرية والتطوعية وكل الأنشطة ذات الصبغة الإنسانية تشكل حجر الزاوية في إنشاء المجتمع المسلم، وجعله يقف على قدميه، أما القوانين والعقوبات فإنها تحمي ذلك المجتمع، ومن خلال إنشاء المجتمع وحمايته نحمي الخُلُق والروح، ونحمي الأجيال الجديدة من الانسلاخ من الهوية الإسلامية.

٤- إن التعاطف فطرة فطر الله تعالى الناس عليها؛ ولهذا فإننا نشاهد طفلاً رضيعاً يصرخ ويبكي إذا رأى طفلاً آخر يبكي، إنه لا يستطيع أن يميز بين نفسه وبين العالم الذي يعيش فيه؛ لأنه يرى أن أي كرب يصيب أي طفل آخر هو كرب خاص به.

إن الشفقة ومراعاة مشاعر الآخرين جزء من التراث الجيني للبشرية، لكن يمكن لهذه الفضائل أن تختفي إذا لم تتم رعايتها على النحو المطلوب، ومن هنا نفهم الثواب العظيم الذي أعده الله تعالى لأولئك الذين يعطفون على العناصر الضعيفة في المجتمع، ويعملون على سد خلاتهم وما أعظم دلالة قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج

بينهما»[1] وقوله ﷺ أيضاً: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله».

قال راوي الحديث: « وأحسبه قال: وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر»[2]

٥- إن أطفالنا يحفظون العديد من الآيات والأحاديث التي تحثُّ على عمل الخير، لكن هذا الحفظ لا يؤتي ثماره المرجوة؛ وذلك بسبب الممارسات اليومية للآباء والأمهات، والتي لا تشير إلى أنهم يهتمون بأوضاع غيرهم، كما أن انعدام الأُطر التي يبذل الأطفال من خلالها المعروف والإحسان يشكل سبباً مهماً في عدم اكتراث الأطفال بالأوضاع السيئة التي يعيش فيها كثير من المسلمين القريبين والبعيدين.

٦- إن علينا أن نفكّر داخل الأسر في الكيفيات التي نقدم من خلالها المعونة لمن يستحقها، وعلى المدارس والجامعات أن تحدد الساعات التي يجب أن يقضيها الطالب في الخدمة العامة وتقديم النفع العام بوصفها شرطًا للتخرج على ما هو معمول به في بعض الدول المتقدمة، وعلى الإعلام الذي أخذ كثيراً بعقول الأطفال ونفوسهم أن ينحو منحىً جديداً في التوجيه، كي يسهم في إخراج جيل متعاطف وودود وخدوم، وإلا فإن الحياة قد تفضي بنا إلى حالة صعبة من الجفاء والتشرذم والأنانية.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الشيخان.

تنمية المعنى

تعد مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية حقبة زمنية متميزة حيث إن الدمار الواسع الذي خلَّفته الحرب جعل كل جهود التنمية في ذلك الحين تتجه إلى إعادة إعمار البنى التحتية وإعادة بناء المصانع والبيوت التي تهدمت خلال الحرب، وهذا جعل كل الدراسات وكل المفاهيم التنموية تتخذ من تحسين دخل الفرد وتحسين أساليب الإنتاج محوراً أساسياً لها، ثم تبين لكثير من الباحثين ولهيئات الأمم المتحدة أيضاً أن الوفرة المادية لا يمكن أن تكون هدفاً مستقلاً، وإنما هي وسيلة من أجل تعزيز الخصائص الجوهرية لدى الإنسان على نحوٍ يجعله يشعر بالسعادة والأمن، وعلى نحوٍ يوسع مدلول الحرية التي يتمتع بها، ويجعله يشعر بإشباع حاجاته المختلفة، ومن ثم صار الباحثون يتداولون مصطلحات من نحو : (التنمية المستدامة)

و (التنمية الشاملة) و (التنمية الثقافية) وبناء على ذلك اتجهت حركة البحث العلمي صوب إغناء مفاهيم مثل: العدل والحرية والسلوك المقتصد، والعمل والتعليم الجيد، والانتماء الوطني، والجدارة والنظام الخلقي عامة... وقد كان ذلك عبارة عن عمل جبار في الاتجاه الصحيح، لكن الخمس عشرة سنة الأخيرة شهدت انتصاراً مدوياً للتنمية بوصفها تعظيماً للملكية الفردية وزيادة في الرفاهية، مما يعني العودة إلى سيطرة مفهوم التنمية الاقتصادية مرة أخرى على الخطط الحكومية وعلى مساعي الأفراد والمجتمعات، وهذا في الحقيقة يشكِّل انتكاسة خطيرة، ويشكل مصدراً لمجموعة من الاختلالات الأخلاقية والاجتماعية والبيئية. إن العولمة عبر ذراعها الثقافية (الدعاية والإعلان) ترسِّخ لدى الناس مفهوم: المزيد من المال من أجل المزيد من الاستهلاك والمزيد من المتعة، كما أنها تفتح شهية الناس على الإرواء المباشر للرغبات بعيداً عن القيود والضوابط وبعيداً عن التفكير في العواقب العاجلة والآجلة! إن القرآن الكريم يعلِّمنا أن البسط في الرزق والقوة وشعور الإنسان بالملاءة المالية يجعله مهدداً بالوقوع في آفة البغي والعدوان والطغيان، حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾[الشورى: ٢٧]. ويقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[العلق: ٦، ٧]. لا أحد يقول اليوم: إن المشكلات الأخلاقية والاجتماعية التي يسببها الغنى أكبر من

المشكلات التي تنشأ عن العوز والحاجة، لكن من المهم أن ندرك أيضاً أن الحصول السهل

على المال يخرب النفوس، ويؤدي إلى تحجيم الطبقة الوسطى التي تشكل محور التوازنات الاجتماعية، وتعتبر مصدر الإبداع والإنتاج المتفوق.

إن هذه المعاني والمعطيات تجعلنا نندفع إلى التفكير الجاد والعمل الحثيث في اتجاه الآتي:

١ـ مكافحة الفساد بكل أشكاله بوصفه سبباً جوهرياً في دفع الناس إلى الإنفاق الترفي، لأن الذي لم يتعب في الحصول على المال، لا يُتْعب نفسه في التفكير في كيفية إنفاقه، ولا يتعلم فضيلة حسن التدبير.

٢ـ التنمية الحقيقية لا تكمن في زيادة الناتج القومي ولا زيادة رفاهية الفرد فحسب، وإنما لا بد إلى جوار ذلك من العمل على تنمية ما ننظر إليه نحن المسلمين على أنه قيمة جوهرية في المواءمة بين عقائدنا ووضعياتنا العامة وذلك مثل الإيمان والاستقامة والإحسان والبر والإنابة إلى الله تعالى والوقوف إلى جانب الضعيف ونصرة المظلوم... بعبارة أخرى أن نعمل على تعزيز القيم والمعاني والفضائل التي نلقنها لأطفالنا في المدارس.

٣ـ العمل على تنمية رأس المال الاجتماعي، وأعني تلك الأخلاقيات والسلوكات التي تجعل الناس يشعرون بالتضامن ووحدة المصير، وذلك مثل الثقة والصدق والأمانة والتعاون والحسّ الوطني وبناء أكبر عدد ممكن من المرافق ذات النفع العام والمؤسسات اللاربحية...

ثقافة العمل (١)

كلما مضى الناس في طريق الحضارة وجدوا أن تميُّزهم ينبع من كسبهم وجهدهم ومجاهدتهم؛ فقيمة الأمور الفطرية تتناقص كلما زاد تراكم ما يمكن أن نتعلَّمه ونتدرَّب عليه، وإذا نظرنا في واقع أمة الإسلام فإننا نجد نقصاً مريعاً في جودة الأداء وهبوطاً حاداً في مستوى الإنتاجية، وذلك واضح جداً من خلال أرقام الناتج الوطني[1] للدول العربية والإسلامية؛ حيث إن ما تنتجه الدول العربية مجتمعةً أقل مما تنتجه دولة مثل (ألمانيا) منفردةً! وهذه الوضعية الصعبة نشأت بسبب وجود عدد من المعطيات الرديئة، من أهمها عدم وجود ثقافة جيدة توجِّه العاملين في المؤسسات ودوائر العمل المختلفة؛ وافتقارنا لثقافة العمل الجيدة هو أحد نواتج التخلُّف وضعف التعليم والتدريب.

---

(١) الناتج الوطني هو: مجموع ما تنتجه دولةٌ مّا من السلع والخدمات

إن المقصود بثقافة العمل هو مجموع الأخلاق والمبادئ والقيم والنظم والتقاليد التي توطنت في أماكن العمل، وأصبحت موجهة للسلوك الإداري والإنتاجي، ومن المهم في هذا السياق أن أشير إلى أن كثيراً من الناس يعجبون من أمر المسلمين: لماذا لا يعملون بما يكفي من التفاني والجدِّيَّة مع أن دينهم يأمرهم بذلك، ويؤكد لهم أن العمل من أجل الكسب على العيال عبادة يتقرَّب بها المسلم إلى الله تعالى؟

عندي أنَّ هذا لا يدعو إلى العَجَب؛ لأن معرفة الناس بأن شيئاً ما فضيلة لا يكفي للتخلُّق بها، ولهذا فإن التقدم الحضاري يحدث فعلاً حين تتحول الفضائل من معرفة إلى ثقافة، أي: إلى شيء يفعله الناس من غير توجيه ولا ضغط ومن غير خضوع للظروف الطارئة.

السؤال الآن: من الذي يبني ثقافة المنظمة أو المؤسسة أو الجامعة أو المصنع...؟ هل هم القائمون عليها أو العاملون فيها؟

الحقيقة أن إدارة المنظمة والنظم والقوانين التي تحكمها تتحمَّل العبء الأكبر في مسألة بناء ثقافة العمل؛ وذلك لأنه ثبت أنك حين تنشئ على سبيل المثال جامعة ممتازة وجادة ومحترمة؛ فإنك تجتذب إليهاالعناصر الممتازة والمحترمة، كما تجتذب الطلاب الممتازين والجادين وذوي الطموحات العالية، وحين تنشئ جامعة ضعيفة المستوى، فإنك تجتذب العناصر الضعيفة وأولئك الذين لم يجدوا عملاً، كما تجتذب الطلاب الذين لا يريدون من التعليم أكثر من ورقة مقواة تحملهم إلى وظيفة بسيطة، يقضون فيها باقي أعمارهم! لكن

هذا لا يُخلي العاملين من المسؤولية؛ فقد ثبت أن أمور المنظمات مهما كانت محكمة، ومهما كانت قوانينها دقيقة وواضحة؛ فإنه يظل هناك مجال لوجود المزيفين والمهملين وذوي الإمكانات والمواهب المتواضعة، وقد لاحظنا أن هناك شباباً عاديين تخرَّجوا في جامعات راقية، كما أن هناك أشخاصاً غير مؤهلين بما يكفي يعملون في مؤسسات ممتازة.

في الماضي كانت المنافسة بين الشركات والمؤسسات غير جادة، ومن ثم فإن الحكم على ثقافة العمل في مكانٍ مّا كان سهلاً، وكان تقييم الإنتاجية ميسوراً، لكن الأمر قد اختلف اليوم على نحو جذري، ومن هنا فإنه قد تمَّ تأسيس عدد كبير من المنظمات العالمية التي تضع معايير الشفافية والجودة في دوائر الأعمال المختلفة، وصار لدينا كمٌّ هائل من الأدبيات المتعلقة بهذا الشأن،وبعضها يتمتع بمصداقية عالية، ومن ثم فإننا ندرك جميعاً سبب الزوبعة التي جعلت الناس يتندرون في مجالسهم على الجامعات العربية، وذلك حيث تم نشر تصنيف يتحدث عن الجامعات الخمسمئة الأفضل في العالم، ولم يكن بينها مع الأسف الشديد أي جامعة عربية، على حين كان من بينها ست جامعات إسرائيلية!

ثقافة العمل (٢)

أشرت قبل قليل إلى أهمية تكوين بيئة جيدة وصحية لممارسة الوظائف والمهن المختلفة، وتلك البيئة تتكون في الحقيقة من مجموعة النظم والقوانين المعمول بها في الدائرة أو المؤسسة ومن مجموعة العلاقات السائدة فيها بالإضافة إلى أخلاقيات العاملين والآداب التي يأخذون بها أنفسهم، وهذا يعني أن أصحاب المؤسسة والمسؤولين عن إدارتها يسهمون في تكوين البيئة إلى جانب الموظفين ولعلي أشير إلى شيء من مساهمات هؤلاء وأولئك عبر الآتي:

١ - مما لا شك فيه أن الموظف عبارة عن فرد يتمتع بإمكانات محدودة، ولهذا فإنه يظل متأثراً بالجو الذي يعمل فيه، ومن هنا فإن أرباب العمل الخاص والمسؤولين عنه بالإضافة إلى المسؤولين عن الأعمال الحكومية هم الذين يرسمون ملامح بيئة العمل، وهم

الذين يؤسسون لثقافته، ومما هو مطلوب منهم على هذا الصعيد الآتي:

أ- أن يقدِّم المديرون والمسؤولون القدوة لمرؤوسيهم في الانضباط والأمانة والنشاط والفاعلية والحرص على مصلحة العمل، وهذه نقطة في غاية الأهمية، لأن الموظفين لا يتفاعلون مع القرارات المجردة، كما لا يتفاعلون مع المواعظ والشعارات التي يطلقها هذا الموظف أو ذاك، وإنما يتفاعلون مع ما لديه من اتجاهات ومشاعر وسلوكيات ومواقف عملية.

ب- الالتزام المطلق بالعقود الموقعة مع الموظفين والعمال، وهذا واجب شرعي وأخلاقي، وأداء حقوقهم على أفضل وجه ممكن.

ج- إدارة الموظفين بالود والتقارب والمكافأة والتشجيع المادي والمعنوي إلى جانب العمل بروح القوانين وليس بتطبيقها الحرفي المتعسف.

د- استهداف مستمر لجعل الموظفين يشعرون بالرضا الوظيفي والذي يترتب عليه الشعور بالانتماء إلى مكان العمل، مما يحفزهم على تطوير العمل وزيادة الإنتاجيه.

هـ- تدريب المواطنين على رأس العمل وإتاحة الفرصة لهم لامتلاك المزيد من المهارات واعتبار الإنفاق على ذلك استثماراً رابحاً.

٢- أما مساهمة الموظفين والعاملين في تكوين ثقافة العمل داخل المؤسسة وتحسين بيئته، فإنها تتجلى في أمور منها:

أ- الإخلاص وصفاء النية، فالعمل في الإسلام عبادة يتقرب بها العبد إلى الله تعالى والموظف المسلم يحرص على أن يكون قصده من الوظيفة نفع نفسه والحصول على المال الذي ينفقه على عياله وفي وجوه الخير، وإلى جانب هذا هناك الإخلاص لأرباب العمل من خلال السعي إلى تحقيق أهداف المؤسسة وتحقيق طموحاتها، وهناك إخلاص ثالث يتمثل في نصح مستهلك السلعة والمستفيد من الخدمة التي تقدمها المؤسسة أو المصنع، وذلك من خلال الحرص على أعلى قدر ممكن من الجودة.

ب- العمل بالطاقة الكاملة، حيث إن كثيراً من الموظفين يحرصون على الحضور المنظم إلى مكان العمل، ولا شيء بعد ذلك إلى درجة أن إحدى الدراسات ذكرت أن الإنتاجية الحقيقية للموظف في إحدى الدول العربية هي في حدود نصف ساعة عمل في اليوم!. العمل بالطاقة الكاملة يعني أن يأتي الموظف إلى عمله وقد نال قسطاً جيداً من الراحة، كما يعني قدرته على ترك هموم المنزل في المنزل والقدوم إلى المؤسسة بروح متوثبة.

ج- النجاة بنفسه من مشكلة يقع فيها كثير من الموظفين، وتلك المشكلة تتمثل فيما يمكن أن نسميه مصيدة المطالب المتوالية،

حيث إنك تجد في كثير من الدوائر الحكومية والمؤسسات الأهلية من شغل جلَّ يومه بالحديث عن الظلامات التي يتعرض لها وعن الأوضاع السيئة التي يعمل فيها، وقلما تجد فيها من يتحدث عن تطوير العمل وتحسين الإنتاجية، مع أن الشيء الصحيح هو أن يقوم المرء بواجبه في وظيفته، وأن يصقل مهاراته وخبراته، ويتوقع المكافأة على ذلك.

د- المحافظة على أسرار العمل ورعاية مصالحه، وأسرار العمل كثيرة جداً يعرفها الموظفون وكثيراً ما يوقعون عقوداً تنص على كتمانها، والحقيقة أنه كلما تضخمت المؤسسة كثرت أسرارها وكبر معها الإغراء بإفشائها بسبب وجود من يدفع الكثير، مما يتطلب من الموظف المسلم مقاومة أهوائه واستحضار خطورة الخيانة على دينه.

د -تأهيل النفس للعمل ضمن فريق، حيث تزداد أهمية فرقاء العمل يوماً بعد يوم، ولا بد لنجاحها من أن يشذب العاملون فيها، الزوائد في شخصياتهم، ويتحلوا بروح التعاون والتسامح، وفهم الخلفية الثقافية لكل أعضاء الفريق من أجل تحقيق الانسجام وتفادي الوقوع في الأخطاء وتفادي الانقسامات والصراعات.

رأس الخيط (١)

التخلف والتقدم عمليتان كبيرتان، لهما طابع التراكم البطيء، وحين يشعر الناس أنهم يعانون من شيء من التخلف يبدؤون في التفكير للتخلص منه، ويظنون في البداية أن الأمر سهل، ثم يتبين لهم أنه ليس كذلك؛ لأنهم سيختلفون في معظم الأحيان حول تعريف التخلف وحول حقائقه ومظاهره في حياتهم، وحين يتجاوزن هذه المرحلة يجدون أن أمامهم مشكلة أخرى، هي تحديد الخطوة الأولى على طريق الخلاص أو رأس الخيط الذي ينبغي أن يمسكوا به، ونستطيع القول: إن الناس لا يكادون يكفون عن التفكير في هذا الشأن، كما أن مجالسهم تظل عامرة بالجدل والنقاش حوله، ومن النادر أن ينتهي ذلك الجدل إلى شيء محدد، لكنه يساعد على إنضاج الوعي.

أنا أود أن أساهم في هذا النقاش من خلال تقديم مقترحات لتحديد الخطوة الأولى أو رأس الخيط على صعيد الفرد، وعلى صعيد الأمة، مع الاعتقاد الراسخ بأن أياً منا لا يملك كلمة الفصل في هذا،

لكن إذا لم نستطع الدخول إلى حمى الحقيقة، فشيء مفيداً جداً أن نحوم حولها.

١- إن كون أول آية تنزل على نبينا محمد ﷺ تشتمل على الأمر بالقراءة لدليل واضح على أن مشكلة العرب كانت عند بزوغ فجر الإسلام هي (الجهل): الجهل بالله تعالى وبالأنفس وبالواقع وبطرق التقدم، وبعد دخول أمة الإسلام في نفق الانحطاط قروناً عديدة عاد الجهل مرة أخرى ليشكل الآفة العظمى التي تعاني منها الأمة اليوم.

الجهل كلمة كبيرة وذات دلالات معقدة، وقد يكون من الصعب علينا أن ندرك حجم معاناتنا منه إلاّ إذا حاولنا مقارنة أدوات التثقيف وموارده لدينا مع ما لدى الأمم الأخرى، وفي هذا السياق نجد المعطيات الآتية:

- نسبة إتمام الطلاب للمرحلة الابتدائية هي في حدود ٩٨٪ في الدول المتقدمة و ٥٠٪ في الدول الإسلامية.
- هناك (٢٣٠) عالماً بين كل مليون مسلم و (٥٠٠٠) عالم بين كل مليون أمريكي.
- معدل توزيع الصحف اليومية في باكستان هو (٢٣) صحيفة لكل ألف مواطن، ومعدل توزيع الصحف اليومية في سنغافورة هو (٤٦٠) صحيفة لكل ألف مواطن.
- في بريطانيا يتم توزيع (٢٠٠٠) كتاب لكل مليون مواطن. في مصر يتم إصدار (١٧) كتاباً لكل مليون مواطن.

أرقام كثيرة من هذا النوع تكشف عنها المقارنة بيننا وبين الأمم الأخرى على صعيد العلم والتعليم... اليهود بمكرهم وجشعهم وسعيهم المستمر إلى إفساد المكان الذي يعيشون فيه ظلوا يعانون من القمع والتشرد والنبذ الاجتماعي.. وبعد معاناة دامت قروناً صار لديهم ما يشبه الإجماع على أن التعمق في العلم والإبداع في توليد المعرفة وإيجاد التطبيقات لها هو رأس الخيط الذي ينبغي أن يمسكوا به من أجل التخلص من الوهن الذي يخترق كل مفاصل حياتهم... في كندا على سبيل المثال كانت نظم التعليم تمنع أي يهودي من التمكن من الدراسة في كليات الطب، وفي عام ١٩٤٢ استطاع شاب أن يدخل إحدى كليات الطب هناك عن طريق إخفاء انتمائه الديني أو عن طريق آخر، وقد تألق هذا الطالب في دراسته حتى تم اختياره معيداً في الكلية، وبعد سنوات صار رئيساً لأحد الأقسام، وبعد سنوات أخرى صار عميداً للكلية التي درس فيها، وتمكن حينئذ من فتح باب كلية الطب أمام الطلبة اليهود، ومضت الأيام وإذا المحرومون من دراسة الطب صاروا يقودون هذه المهنة العلمية بقوة وبحضور شديد، واليوم تجد اليهود هناك مسيطرين على عمادات كليات الطب، وعلى إدارات المستشفيات والمراكز الصحية، ولم يكن ذلك بسبب العبقرية المزعومة لليهود، وإنما بسبب إدراكهم في وقت مبكر أن طريق الخلاص من الذل والخنوع والتشرد الجماعي هو العلم والبحث العلمي والريادة الأكاديمية، وقد تحول اليهود بفضل العلم إلى رموز عالمية مشهورة،

ويكفي أن نقول إن اليهود الذين لا يصلون إلى خمسة عشر ـ مليوناً قد حصلوا خلال قرن على (١٨٠) جائزة من جوائز (نوبل) الشهيرة، وهذا شيء لم يحققه أبناء أي ديانة أخرى إذا أخذنا بعين الاعتبار ضآلة عدد اليهود بالنسبة لأعداد أبناء الديانات الكبرى.

مهما كان الوضع الذي يقيم فيه أي فرد مسلم، ومهما كانت المرحلة العمرية التي يمر بها فإن الإقبال على القراءة والتعلم بشغف واهتمام وتركيز يشكل وجهاً مهماً من وجوه البداية على طريق الخلاص من التخلف والسير في اتجاه الازدهار الشخصي، وإن في إمكاننا القول: إن الشباب المسلم ينقسم اليوم إلى ثلاثة أقسام:

- قسم ـ هو الأكبر - يقف من المعرفة موقف اللامبالي والمنصرف إلى الاهتمام بأمور كثيرة لا تمت إلى العلم بأي صلة.
- قسم آخر ـ أصغر من الأول - يهتم بنقل المعرفة واستيعابها والاستفادة منها.
- قسم ـ ضئيل جداً - ينتج المعرفة ويُبدعها ويحاول إيجاد تطبيقات لها... وإن رأس الخيط بالنسبة إلى جماهير المسلمين يتمثل في التحول من القسم الأول إلى الثاني، إذ لا ينبغي لأي واحد منا أن يقف موقف المتفرج؛ والعالمُ من حوله قد اتخذ من العلم منطلقاً لتغيير كل تفاصيل الحياة. ويتمثل رأس الخيط بالنسبة إلى القسم الثاني بالانتقال إلى القسم الثالث حيث يكون البحث العلمي الدؤوب مفتاحاً لإنتاج المعارف الجديدة وتوفير تطبيقات للقديم منها.

رأس الخيط (٢)

ذكرت في المقال الماضي أن الاهتمام بالقراءة والتثقيف والتعليم واعتماد المعرفة أساساً للنهضة، يشكل شيئاً مهماً في رأس خيط النهضة، وأود أن أوضح هنا أن ما ذكرته هو جزء من البداية وجزء من رأس الخيط، وهناك أمور أخرى إضافية تحتاج منا إلى العناية والاعتماد، ومن تلك الأمور الآتي:

١ - توسيع مجال النقد وإبداء الملاحظات والاستعداد لإظهار قدر كبير من الشفافية، وكما نقول دائماً: إن النقد لا يعني إظهار العيوب والسلبيات ونشرها في كل مكان، وإنما يعني البحث في الظاهرة وتقويمها وإبراز ما فيها من حق وباطل وإيجابيات وسلبيات... وهذا يعني نشر الوعي والارتقاء بالفهم العام لأحوال العباد والبلاد، وأود أن أؤكد في هذا السياق أن النقد ينبغي أن

يتسلط على الأساليب والأدوات والخطط وتصرفات الأشخاص والآراء والاجتهادات المتعلقة بالتنمية والنهضة، ولا يصح في أي حال أن يتوجه النقد إلى الثوابت والأصول، وما هو موضع إجماع اجتماعي؛ لأننا بذلك نكون مثل ذلك الشخص الذي كان يجلس على غصن شجرة شاهقة الارتفاع، فأخذ منشاراً، وقطع ذلك الغصن، فقضى على حياته وعلى الغصن معاً.

نحن ندرك اليوم أكثر من أي وقت مضى أن وجود الثوابت في حياتنا هو الذي يؤمّن لنا طريق العودة حين نشعر أننا مضينا نحو الوجهة الخاطئة. إذا لم نسمح لنقد الممارسات بالظهور بقوة، وإذا لم نوسّع دائرة الرقابة الإعلامية على المؤسسات والدوائر العامة، فإن النتيجة الحتمية المتوقعة لن تكون سوى شيء واحد، هو انتشار الفساد والظلم والرشوة والكذب والادّعاء، وهذا يجعلنا نخسر شيئين يشكلان جزءاً عزيزاً من رأسمالنا الاجتماعي، وهما الثقة والمصداقية، وحين يفقد مجتمع الثقة بين أفراده، فقد لا يستعيدها إلاّ بعد قرون!

٢- تحويل القيم إلى إجراءات: أي إيجاد الأطر والأدوات والنظم التي تساعد على تجسيد القيم والمبادئ السامية في الحياة العامة، وهذه نقطة في غاية الأهمية، وذلك لأن القيم مهما كانت عظيمة وجذابة لا تعمل في فراغ؛ أي تحتاج إلى شروط وظروف

تدفع الناس دفعاً في اتجاه الالتزام بها والعمل بمقتضاها، خذْ على سبيل المثال مبدأ (العدل)، هذا المبدأ العظيم الذي قامت عليه السماوات والأرض، واستولت قدسيته على نفوس العالمين، يظل مرفرفاً في الفضاء ما لم نوفر له جهازاً قضائياً يتمتع بالاستقلالية والنزاهة، والمصداقية. وسرعة الإنجاز.. إغاثة الملهوف قيمة عظمى وموضع إجماع عالمي، ومن الواضح أن الواحد منا قد يمر عليه سنوات طويلة دون أن يغيث أي ملهوف ما لم تتوفر أطر ومؤسسات تطرح برامج للإغاثة واستيعاب الجهود التطوعية.

إذا تأملنا في حياة الأمم اليوم وجدنا أنّ ما لا يقل عن ٨٠٪ من القيم والمبادئ هو موضع احترام وتقدير موحد على مستوى العالم، لكن الأمم المتقدمة وفرت الشروط الموضوعية المحفّزة على الالتزام بها، أما الأمم النامية والمتعَبة فإنها تفتقر إلى تلك الشروط، ومن ثم فإنها تعيش حياة قريبة من حياة المفتقر إلى القيم نفسها، ولو نظرت إلى فشوّ رذيلة الكذب في كثير من مجتمعاتنا للمست صدق ما أقول!

٣- رعاية الإبداع: قسم الله تعالى الإمكانات الذهنية على الأمم بالتساوي وعلى الأفراد بالتفاوت، وحين نجد أمماً تبدع وتخترع وتقود، وأمماً تقلد، وتستهلك، فإننا لا نجد لذلك سوى تفسير واحد، هو أن الأمم الرائدة ترعى المبدعين وتحتضنهم، وتوفر لهم ما يساعدهم على المضيّ في طريقهم، أما الأمم الأخرى، فإن

أولاد الأثرياء فيها يجدون الفرص للتعليم الممتاز حتى لو لم يكونوا موهوبين ولا جادّين، أما المبدعون من أبناء الفقراء، فلا يجدون في معظم الأحيان من يقف إلى جانبهم أو يؤازرهم، ومن هنا فإن توفير منح دراسية وموارد لتمويل البحوث الجادة، يشكل مهمة من المهمات الكبرى على صعيد انطلاق الحضارة ونهوض الأمة.

البحث عن إضافة

جعل الله تعالى هذه الدنيا داراً للابتلاء، فوفَّر فيها كل شروط الابتلاء، وإن استحضار هذه الحقيقة شيء أساسي؛ حتى لا يمضي الناس في طرق الانحطاط والخسران من حيث لا يشعرون. حين يكون كل ما حولنا متحركاً وفي كل اتجاه وعلى كل مستوى؛ تصبح مسألة الإضافة والتجديد والتقدم خارج حدود الرفاهية أو حدود المستحسَن، وتدخل في حدود الواجب الحضاري، وفي حدود المحافظة على الوجود المادي والمعنوي. أنا هنا لا أتحدث عن الإضافة على الصعيد السياسي أو الصناعي.. وإنما أتحدث عنها على الصعيد الفكري والثقافي؛ لأن الإضافة على هذا الصعيد هي التي تفتح الطريق أمام كل الإضافات.

ولعلِّي أشير في هذا السياق إلى الأمور الثلاثة الآتية:

١ - التقدم الحضاري الحادث الآن فتح شهية الناس على فضاء لا محدود من الرغبة في الاستهلاك والبحث عن الجديد، وهو ما

جعل الجِدَّة الافتراضية لبعض المنتجات التقنية لا تزيد على عشرة أيام حيث ينزل الجديد إلى السوق ويتم الحكم على ما سبقه بأنه قديم، واللافت للنظر أن هذا بات ينسحب على الأفكار والمقولات وأساليب الدعوة والإقناع؛ حيث مضى على ما يبدو ذلك الزمان الذي يتعلَّق فيه الناس بخطيب أو متحدث أو كاتب؛ عشرات السنين ما لم يبذل جهداً استثنائياً في تلمُّس الجديد وتقديم المفيد والمثير على نحو مستمر.

٢- نحن نعاني من مشكلة يمكن أن نسمِّيها مشكلة (المطالب المتناقضة)؛ حيث إن كثيرين منَّا يزهدون فيما يقدِّمه الكاتب والخطيب والمفكر إذا لم ينطوِ على جديد، ويُعْرِضون عنه، وربما أطلقوا ألسنتهم فيه، وإذا جاء كاتب أو مفكر بشيء جديد لم يجدوا لديهم من الأريحية والشجاعة ما يحملهم على شكره والاعتراف به، بل إنهم يقفون منه موقف المتشكِّك المتردِّد، وهذا إذا لم يعثروا فيه على مأخذ أو مغمز، فإذا وجدوا شيئاً لا يروقهم، ولا ينسجم مع معارفهم ومخزوناتهم الثقافية؛ فإنهم لا يعذرون، ولا يحقِّقون فيما أنكروه، ولا ينظرون إليه على أنه جزء من تكاليف الإبداع والاجتهاد، وإنما يهاجمون صاحبه، ويتجاوزون المعطيات الملموسة إلى النوايا والمقاصد، ويوسِّعون دائرة النقد على أسس واهية أو مختلف فيها! هذا تناقض ظاهر، وقد أدَّى الخوف من ألسنة هؤلاء وأقلامهم إلى جنوح بعض الكُتَّاب إلى التشدُّد، وإلى الإحجام عن

الاجتهاد والتجديد، وفي هذا خسارة كبرى للقضية الإسلامية عامة وللصحوة خاصة!

٣- لدينا شريحة من أهل الغيرة والحمية الإسلامية، لم يعمل الذين ينتمون إليها على تأهيل أنفسهم لتقديم شيء نافع، ولا يملكون مقومات التفكير الإيجابي، وهم ميَّالون إلى الصمت في معظم الأحيان، ولكنهم يمتلكون مهارات النظر الحرفي الضيق، وهؤلاء لهم دور مفيد - ولا شك - في منع بعض الشطط الذي يقع فيه بعض المنظِّرين والكُتَّاب والمتحدثين والمفتين، لكن مشكلتهم تكمن في أنهم يريدون من الجميع أن يمارسوا على نحو دائم نوعاً من الترديد للبدهيات والأصول والكليات، وإلا كانوا موضع اتهام بالانحراف أو التقصير، وما درى هؤلاء أن الكليات والأصول والبدهيات والثوابت لا يُنص عليها في مناسبة وفي غير مناسبة، إنها تُستبطن وتُراعى، ويُحسب حسابُها؛ لأنها إطار يلتزم به المفكر والداعية والكاتب المسلم، وبعضهم لا يرى في الفكرة وفي الرأي ما يثير الحماسة والإعجاب إلا إذا كان مؤيَّداً بالنصوص والشواهد، وهذا أيضاً غير لازم؛ لأن الشواهد يُؤتَى بها في حالات الاختلاف والشك وحين يخاطب المرء العامةَ وأشباههم ممن لم يُؤْتَوْا إلا القليل من العلم، أما الصفوة والخاصة وطلاب العلم؛ فإنهم ينتظرون التحليل الجديد والتعليل المبتكر والفكرة البكر التي تفتح أفقاً للتأمل أو حقلاً للممارسة. والمهم دائماً عدم الاصطدام بالثوابت

والقطعيات وعدم الاصطدام بروح الشريعة الغراء. حين تكون الأمة في حالة ركود حضاري؛ فإن وعيها يُفتَن بالكمِّ وينشغل بالأشكال والمظاهر، وهذا ما نلاحظه في كثير من قضايانا وجوانب حياتنا، وعلى سبيل المثال: فإن رسائل الدكتوراه والماجستير قد تضخمت في كثير من الجامعات حتى بلغت الواحدة منها ألف صفحة إي والله ألف صفحة، وحين تقرأ فيها وتبحث عن الإضافة التي جاءت بها وعن الجديد الذي توصل إليه الباحث؛ فإنك ستشعر بالكثير من خيبة الأمل، وفي أحيانٍ كثيرة لا يتجاوز الجديد ٥٪ من البحث، والسبب هو الاجترار للمعلومات وعدم تدقيق المشرفين والمناقشين في تلك الأعمال وعدم تأكيدهم على الكيف وعلى الجديد. إذا رأيت كتاباً كبيراً يتحدث عن قضية صغيرة محدودة؛ فاعلم أن فيه الكثير من اللغو والكثير من الاستخفاف بعقل القارئ، ونحن اليوم في أمسِّ الحاجة إلى الكثير من الأفكار العملية المبدعة، ولو كانت صغيرة، وكان من أتى بها غير مشهور، أو كانت في رسالة صغيرة، المهم أنها تشكل إضافة حقيقية لمحصولنا الثقافي والفكري.

امتحان الثقافات

لا نعني هنا بالثقافة المعلومات والمعارف التي تكون في حوزة شخص من الأشخاص أو أمة من الأمم، وإنما نعني ذلك الكل المركَّب من العقائد والأفكار والمعارف والنظم والأخلاق والعادات والتقاليد السائدة في بيئة محددة. الثقافة بهذا المعنى تعني الذات المعنوية للأمة، وهي أداة استيعاب الوجود والنظر إلى الذات والآخر، وأداة مواجهة المشكلات والهيكل المعنوي الذي يتلقى الصدمات القادمة من الداخل والخارج...

الثقافة بوصفها أداة للفهم والعمل وتنظيم ردود الأفعال و بوصفها أداة لمقاومة العدوان الثقافي الخارجي تظل في امتحان دائم، وعليها دائماً أن تنجح فيه، وإلا أصيبت بالعطب، أو فقدت جزءاً من حيويتها، والأمثلة التي يمكن أن نشرح من خلالها هذه الحقيقة كثيرة للغاية، أكتفى منها هنا بثلاثة أمثلة:

١- إدارة الاختلاف:

لدى كل الثقافات محرمات وخطوط حمراء لا يصح تجاوزها، ولديها أيضاً مساحات خضراء تسمح بالتنوع والاختلاف والحركة... إذن لا تظهر الثقافة في مدى ما فيها من اختلاف واتفاق، وإنما في طريقة تعاملها مع الاختلاف، وهذه نقطة مفصلية في تباين الثقافات، فالثقافة الناضجة تتعامل مع الاختلافات بعقلانية ولغة مهذبة، وتعتمد الوعي والحوار والتربية أساساً للتخلص من الأقوال الشاذة والأفكار الفجة، أما الثقافة التي لم تبلغ درجة النضج المطلوب، فإنها تعتمد في حسم الخلاف على استخدام القوة وسنَّ المزيد من القوانين، كما أن لغة المختلفين تكون متشنجة وبعيدة عن الموضوعية، وأعتقد أن الذي يتأمل فما كتب من تعليقات على الفتاوى المتأخرة في الصحف وعلى (النت) لا يشك بأن ما نتحدث به خلال عقدين من الزمان عن أسباب الاختلاف وعن التعددية ما يزال عبارة عن قشرة ثقافية هشة، لا تسمن ولاتغني من جوع!

٢- التعامل مع المشكلات:

ليس هناك مجتمع ليس فيه مشكلات، والثقافة هي التي تحدد حجم المشكلات السائدة، وعلى نحو عام تكون حساسية أصحاب الثقافات المتحضرة تجاه المشكلات أشد، حتى إن ما يعد شيئاً هيناً وطبيعياً في نظر أصحاب الثقافات المتخلفة، يُعد في نظر الفريق

الأول شيئا خطيراً، ولا يمكن احتماله. حين يواجه أصحاب ثقافة ناضجة مشكلة كضعف الالتزام أوالتضامن الأهلي أو الاستبداد أو مشكلة مثل البطالة أو ندرة المياه.. فإن إدراكهم لحجم المشكلة يتم عن طريق التخمين والتأمل، وأما أدواتهم في المواجهة فإنها تقوم على الشكوى والحسرة والاحتيال والوعظ والخروج عن القانون.. أما أصحاب الثقافات المتقدمة فإن مساعيهم لتوصيف المشكلة تقوم على الإحصاء والاستقراء والمقارنة، وحين يريدون علاجها، فإنهم يعملون على تحديد أسباب المشكلة وتحليلها، كما يعملون على مراقبة تطوراتها، ثم يتعاملون معها عن طريق طرح الكثير من المبادرات الصغيرة لعلمهم أن المشكلات الحضارية ترتدي برداء التعقيد، وتحتاج إلى حلول مركَبة، وحين تكون الأمة في وضعية انتقالية، فإنها تحاول أن تقلد أصحاب الثقافة الناضجة، وتحقق في العادة نجاحات متواضعة.

٣- استثمار الوقت:

هذه الساعات التي تمر علينا هي عبارة عن امتحان كبير لنا، ومن الواضح أن أصحاب الثقافة المتخلفة ينظرون إلى الوقت على أنه عبء، وليس فرصة، ولهذا فإنهم يتفننون في قتله والتخلص منه، ويظهر هذا واضحاً في حال شغلهم وحال فراغهم، أما في حال شغلهم، فإن كفاءة استفادتهم من الوقت تكون متدنية، وإنتاجيتهم

رديئة، أما في حالة فراغهم، فإنهم ينزعون إلى الثرثرة الفارغة والجلوس أمام التلفاز..!

أما أبناء الثقافة المتقدمة، فإنهم ينظرون إلى الوقت على أنه عنصر من أهم عناصر الإنتاج والإنجاز، ولهذا فإنهم يتعاملون معه بدقة تصل إلى جزء من الثانية، ويتلقون الدورات التدريبية التي تساعدهم على تقليل الأوقات المهدورة، أما الفراغ فإنهم يستخدمونه في الاستجمام وممارسة الهوايات والقيام بالأعمال المهمة التي لم يستطيعوا إنجازها في أوقات الدوام الرسمي.

تظل كيفية تعامل الأمم مع الوقت مقياساً من أهم مقاييس الارتقاء الحضاري. فما تصنيفك لثقافتنا السائدة يا ترى؟

من المسؤول ؟

حين يقع الناس في أزمة كبرى فإن أظهر ما يبرعون فيه هو الشكوى من سؤال الأحوال والتنصل من المسؤولية عما جرى وما يجري، ونحن نسأل: هل التنصل من المسؤولية هو سبب التدهور؟ أو أن التدهور يدفع في اتجاه التنصل من المسؤولية؟ الذي يظهر لي أن العلاقة بينهما جدلية، وكل واحد منهما يكون في موقع السبب في بعض المواقف والحالات، كما يكون في موقع المسبَّب في مواقف وحالات أخرى.

الذي أثار في ذهني هذا الموضوع هو العلاقة التي تربط كثيراً من الناس بالإعلام والتعليم والسياسة وغيرها، وإذا أخذنا الإعلام (نموذجاً) فإننا سنجد فئة غير قليلة من الناس تلقي اللوم على الإعلام، بوصفه الأداة التي تصنع النجوم، وتصنع أيضاً المعايير

والطموحات. الإعلام هو الذي يجعل من (فنانة) أشبه بالبطل القومي الذي أنقذ بلاده من كارثة، والإعلام هو نفسه الذي يعتِّم على رجالات الفكر والمعرفة والتعليم.. فيصبحون أشبه بالغرباء في بلادهم، وهذا مشهد ملموس.

أما القائمون على وسائل الإعلام ـ على الأقل - فيقولون: ليس هناك خطة مبيَّتة لتوجيه المجتمع في اتجاه ضارّ أو فاسد، والسبب أن الإعلام لا يملك (عقلاً جمعيًّا) يوجه مؤسساته، بل الصحيح أن المؤسسات الإعلامية متنافسة، وبينها سياسات طرد من السوق ـ إن صح التعبير - وهي مؤسسات ربحية في المقام الأول، ومديروها يُطالَبون سنوياً من قبل المساهمين بتحقيق أرباح، وإلاّ فقدوا وظائفهم، ووسائل الإعلام حتى تحقق الربح، فإن عليها أن تجتذب المعلنين، والذين يدفعون أكثر كلما كثر المشاهدون للبرنامج والعمل (الدرامي) الذي يعلنون فيه، وهذا يتطلب من تلك الوسائل أن تلبي رغبات الجماهير، وتراعي أذواقهم، وهذا ما تقوم به. يقول أحد الإعلاميين: إن نُشِر في أي موقع من المواقع المشهورة على الإنترنت خبر يتعلق بنجم (فنان أو رياضي) فإن الخبر يُقرأ من قبل مليون أو مليونين من الناس، وإذا نُشر خبر يتعلق بواحد من مشاهير أهل العلم والفكر والإبداع، فإن الخبر لا يُقرأ إلاّ من حوالي عشرة آلاف شخص ـ على أكثر تقدير - وهذا يدل على أن الناس مهتمون جداً بما تهتم به القنوات الفضائية والوسائل الإعلامية المختلفة، كما يدل على أن الناس

زاهدون فيما تزهد فيه، ويقول ذلك الإعلامي: إن الالتزام بتعاليم الإسلام وقيمه شهد نكسة حقيقة خلال السنوات الخمس الأخيرة في كثير من البلاد العربية والإسلامية! ويضيف ذلك الإعلامي قائلاً: ليس هناك سبيل لإصلاح وسائل الإعلام، وعلى الناس أن يصرفوا التفكير نهائياً عن ذلك؛ لأنه لا جدوى منه، والحل يكمن في أمرين:

١ - إصلاح الناس أنفسهم بالطرق والوسائل المختلفة؛ فإذا تغيرت اتجاهاتهم فإن الوسائل الإعلامية سوف تغير طروحاتها والمواد التي تقدمها حتى تضمن أكبر عدد ممكن من المشاهدين والقرّاء والمستمعين.

٢ - أن يسعى الإعلام الإسلامي على نحو جادّ إلى النهوض بذاته، وتحسين مستوى الجودة لديه حتى يجتذب أكبر عدد ممكن من المتابعين، وهذا أمر يحتاج إلى الكثير من العمل.

السؤال الذي يطرح نفسه هو:

من نصدِّق: وسائل الإعلام أم الناس؟

والذي يظهر لي أننا جميعاً قد دخلنا في دورة معيبة، يصعب جداً على من دخل فيها أن يصدر حكماً جلياً، ولهذا فإني أعتقد أن ما يقوله الإعلاميون في الجماهير صحيح، وما تقوله الجماهير في المسؤولين عن كثير من الوسائل الإعلامية هو أيضاً صحيح.

إن المسلم الذي يرجو الله واليوم الآخر، ويعرف بعمق معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[يس: ١٢]. لا يستثمر أمواله في مجال

لا يحقق فيه الربح إلاّ من وراء إفساد الناس والإساءة إلى المِلّة، إنه يعرف مدى خطورة ذلك على تديّنه وآخرته، ولهذا فإنه ينأى بنفسه عنه. ومن وجه آخر فإنه لا أحد يُلزم أحداً بأن يشتري مجلة خليعة أو يشاهد قناة فاضحة أو متحلّلة. فالناس قادرون على الاختيار، وقادرون على الانتقاء والمقاومة، وصار بحمد الله لدينا بدائل جيدة لكثير من الأشياء السيئة، إذا كنا مهتمين بمصيرنا النهائي، وإذا كنا مهتمين بتربية أبنائنا التربية الإسلامية الصحيحة.

إن من المؤسف أنك ترى شباباً يجولون في الشوارع بأقل درجة من الخُلُق والذوق ومراعاة العرف الاجتماعي، وأنا حين أرى بعضهم أتساءل: هل هؤلاء من نسل أناس محترمين؟ وهل لهؤلاء أسر ربَّتهم، وتسأل عنهم؟

إن التلاوم لا ينفعنا في شيء، والمطلوب أن يتحمل كل واحد منا مسؤولياته تجاه ربه وأمته، وهذا ما نلاحظه في العديد من المواقع والمواقف والمجالات، وعلينا أن نضاعف الجهد من أجل نشر الخير و محاصرة الشر في أضيق الزوايا.

والله من وراء القصد.

منافسة مفتوحة

مضى على حديثنا عن تطوير التعليم والنهوض به ما يزيد على ربع قرن، والحقيقة أن أساليب التعليم لم تكن قادرة في أي يوم من الأيام على الاستحواذ على الإجماع، لكن في الربع الأخير من القرن الماضي تركز اهتمام كثير من الناس على (التعليم) بوصفه مدخلاً أساسياً للتقدم الشامل، لكن من المؤسف أن النتائج التي حصلنا عليها من وراء عشرات المؤتمرات والندوات وألوف المقالات، متواضعة للغاية، وبدت الجهود في إصلاح التعليم أشبه بالجهود التي يبذلها من يقوم بطلاء سفينة آخذة في الغوص نحو القاع! وإن مما يثير الدهشة أن المجتمعات تنشئ المؤسسات التعليمية من أجل تطوير الحياة العامة، وهي تقوم بدور فعّال في ذلك، لكنها ترتبك ارتباكاً عظيماً في تطوير نفسها، فهي دائماً تميل نحو المحافظة والجمود!.

يظن معظم رجال التعليم أنه لا شيء يدعو إلى العجلة، فما لم نطوِّره اليوم يمكن أن نطوِّره غداً، وهذا الظن ليس في محله، فالتطورات السريعة في مجالات التقنية وإدارة الأعمال والانفتاح الهائل بين الدول والشعوب يجعل نوعية التطوير المطلوب بعد خمس سنوات غير نوعية التغيير المطلوب اليوم، بمعنى أن الأفكار التي بلورناها لتقدم التعليم ربما كانت مفيدة إذا طبقناها اليوم، أما إذا لم نفعل ذلك، فإننا لن نستطيع الاستفادة منها في المستقبل القريب.

ومن وجه الآخر فإن الحركة الاجتماعية لن تنتظرنا إلى مالا نهاية، فالضعف المريع في مؤسسات التعليم العالي مثلاً يُغري كثيراً من رجال الأعمال باللجوء إلى حلول جذرية وسريعة بعيداً عن كل ما يتداوله رجالات التعليم من أفكار إصلاحية ذات طابع تقليدي ومتحفظ، وهذا ما يحدث الآن، حيث إنه تم افتتاح فروع مصغرة لعشرات الجامعات الغربية المرموقة والمتوسطة، وهي مرشحة للازدياد السريع في منطقة الخليج على نحو خاص، وهذا سيشكل خطراً داهماً على مكونات الهوية والثقافة المحلية، ومع أنني أدعو إلى الانفتاح والاستفادة من تجارب الآخرين، إلا أن الانفتاح غير المدروس هو بمثابة اللعب بالبرمجة الذهنية والنفسية لأعداد هائلة من الشباب الذين سيقودون بلادهم خلال العشرين سنة القادمة!.

أنا أعرف كما ذكرت من قبل أن التعليم الجيد مكلف، لكن التعليم السيِّئ مكلف أكثر على المدى البعيد، ولهذا فإنه لا بد لنا من أن ننفق على التعليم أبنائنا بسخاء بالغ، وهذا لن يكون كافياً ما لم نوقظ الروح الهاجعة لدى المؤسسات التعليمية، وما لم ننفتح على الخبرات العالمية، لأن الانفتاح على الواقع هو مصدر لكل تجديد، لكنْ هناك فرق بين أن نقتبس ونختار ما يتلاءم مع خصوصيتنا وحاجاتنا وبين أن نسلم قيادنا للآخرين ليذهبوا بأبنائنا إلى حيث يشاؤون. نحن نعتقد أن النماذج الراقية والمتقدمة تشكل منارات في مناطقها، وتكون مصدراً للإلهام والإشعاع؛ وفي سبيل تحقيق ذلك فإني أدعو اتحاد الجامعات العربية واتحاد الجامعات الإسلامية إلى العمل على وضع خطة طموحة وجبارة في هذا الشأن، وذلك من خلال السعي إلى أن يتم إنشاء جامعة عملاقة ومتخصصة في كل بلد عربي وإسلامي، تستقطب الشباب الممتازين، وتوفر لهم أفضل تعليم موجود في القرن الحادي والعشرين، في هذا البلد جامعة للعلوم الشرعية، وفي بلد ثان جامعة للعلوم الهندسية، وفي بلد ثالث جامعة للعلوم الطبية، وفي بلد رابع جامعة لعلوم الفيزياء.... جامعات تقف في مصاف الجامعات المرموقة في العالم، وتقوم بتوفير التعليم والتدريب الممتازين، وتوطِّن المعارف المتقدمة، وتعمل على المحافظة على الثقافة الإسلامية والهوية المحلية، كما أنها تغني الشباب أو كثيراً منهم عن السفر إلى جامعات الشرق والغرب.

قد يقول قائل: هل هـذا ممكـن؟ وأقـول إنـه ممكـن وميسـور، ونحن نملك كل الإمكانات لذلك، لكـن مـا نحتاجـه هـو الإرادة والعزم والاهتمام.

إلى أنصار الجوهر

من المألوف في كل الساحات الثقافية أن يحتدم الجدل حول كثير من القضايا، فهذا جزء من الحراك الثقافي، وإن من حق جميع الناس أن يكون لهم رأي في كل ما يعتقدون أنه يتصل بالحياة العامة، أو يؤثر في حياتهم الشخصية، ومن الطبيعي أن تُستغلَّ مساحات الحرية المتاحة استغلالاً غير راشد من بعض المثقفين، لكن من المهم إلى جانب هذا كله ألاّ يظهر مثقفو البلد الواحد وكأنهم ليسوا متفقين على أي شيء، فهذا يهدد الوحدة الثقافية والتضامن الأهلي، ويوقع البلبلة في المؤسسات التربوية على نحو خاص، ومن الملاحظ في السنوات الأخيرة وصف كثير من الكتَّاب في الصحافة وغيرها لمسائل ذات بعد شرعي بأنها شكلية أو هامشية أو هي من القشور، أو مما لا يستحق العناية، أو من الأمور التي يُصرف الاهتمامُ بها عن قضايا خطيرة وجوهرية... وأود أن أشير في هذا الشأن إلى أمرين أساسيين:

الأول: أن من غير المناسب وصف شيء من أمر الدين بأنه من القشور أو من الشكليات، ومع أننا نسلّم بأن في الدين أصولاً وفروعاً وكليات وجزئيات، كما نسلّم أن هناك الواجب والمسنون والمندوب، كما أن هناك المحرم والمكروه، وما يُسمّى بخلاف الأولى، إلاّ أن علينا أن ننتبه إلى أن الإسلام بوصفه الرسالة الخاتمة قد أحاط بكل التفاصيل المتعلقة بالحياة الشخصية للإنسان المسلم، ومن ثم فإن الامتثال لما رغَّب فيه الشرع مهما يكن من الجزئيات يُعدُّ من معالي الأمور، ومن مكملات التديّن والعبودية لله تعالى ويُقال مثل هذا في الابتعاد عما ثبت نهي الشارع عنه، ولو كان من المكروهات التنزيهية التي لا يُعاقَب فاعلها، وقد صح عنه أنه قال: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه) ثم إن لما يُصنَّف بأنه أقل أهمية، أو يُصنّف على أنه من المسنونات أو المكروهات وظيفةً جوهرية في الحيلولة دون تقصير المسلم في أداء الفرائض والوقوع في الكبائر والمحرمات، والتقدم الحضاري قائم أساساً على الاهتمام بالتفاصيل والذوقيات، ومراعاة ما يهمله الإنسان المتخلف في العادة، ولهذا فإننا نفترض أن يعكس المزيدُ من التمدن المزيدَ من الالتزام بآداب الشريعة الغراء.

الثاني: حين يقول بعض الكتاب: إن اللحية أو غطاء الوجه أو تقصير الثوب... من القشور أو من الأمور الشكلية، فهذا يدل على أنهم يتفقون مع الكتَّاب الإسلاميين بأن هناك أموراً جوهرية

تستحق العناية والاهتمام، وهذا ليس موضع شك لدى أحد؛ إذ إن الكاتب الذي يعتقد أنه مسلم مهما كانت درجة التزامه بما يعتقده يعرف أن الصلاة والزكاة والصلاة والحج وبر الوالدين ونصرة المظلوم وتعظيم شعائر الله من الأمور التي ليست موضع خلاف، كما يعرف أن الزنا وشرب الخمر وقتل النفس والكذب وشهادة الزور والقمار والربا.. من الأمور المتّفَق على تحريمها بقطع النظر عن بعض التفاصيل وهذه المعرفة تُملي علينا -معاشر الكتَّاب والمثقفين- أن نتخذ منها أطراً لبناء ثقافة اجتماعية عامة، وهذا يتطلب أن نتحدث عن هذه القطعيات، وأن نحثَّ الناس بطرق مختلفة على أخذها بعين الاعتبار في سلوكياتهم الشخصية والعامة، وهذا هو في الحقيقة الدليل الأوضح على أن باطننا مثل ظاهرنا، وعلى أن الكتابة ليست وسيلة للارتزاق أو النجومية، وإنما هي مسؤولية وأمانة، ووسيلة لإصلاح المجتمع.

إن الذي يحدث الآن محزِن للغاية حيث تُستهلك طاقات كبيرة في التناحر الثقافي وفي الحديث عن الأمور التي لا نريدها، في حين نهمل الحديث عما نريده ونتطلع إليه.

حين يطول أمد النزاع الثقافي، فإنه يؤدي إلى شروخ عميقة في الحياة العامة، و إلى إضعاف درجة يقين الناس و ولائهم للأصول والثوابت، ويكون آنذاك انحدارهم نحو التحلل الخلقي سهلاً، كما يصبحون لقمة سائغة للثقافات الأجنبية الغازية.

الريـادة الاجتماعيـة ليسـت مكاسـب ومغـانم وجلوسـاً في الصفوف الأولى، إنها قبـل ذلـك غـيرة وحرقـة عـلى كرامـة الأمـة ومستقبل الأوطان.

ثقافة الاستدراك

مهما كان وعي البشرية ناضجاً، ومهما كانت تجاربها وخبراتها عالية وعميقة، فإنها لا تستطيع رؤية الحقيقة دفعة واحدة، فقد مضت سنة الله تعالى فينا على أن نرى الحقائق على دفعات، وأن تتغير رؤانا ومواقفنا تبعاً لتغير الظروف والمعطيات، لكن المشكل في هذه المسألة هو اضطراب مواقف كثير من الناس، هذا الاضطراب ناتج من غموض الرؤية والحيرة في تصنيف كثير من الأشياء. أعني بثقافة الاستدراك تلك القابلية العقلية والروحية والعرفية للتغيير والتحوّل والترميم للقصور.. وإذا تساءلنا عن الدواعي التي تتطلب منا تأسيس هذه الثقافة، فإننا سنجد الآتي:

١ - نحن قد نقول القول، ونقف الموقف بسبب غلبة أهوائنا علينا، وهذا ليس نادراً في الناس، فقد يحبّذ الإنسان الشيء؛ لأن له

فيه مصلحة شخصية، كما يفعل التاجر حين يمدح سلعته بما ليس فيها كي يحصل لها على سعر أعلى، وقد يحبذ أحدنا القول؛ لأنه يوافق مزاجه كما يفعل المتشائمون حين يصدِّقون الأخبار السيئة، وكما يفعل المتفائلون حين يحتفلون بالأخبار السارَّة، وحين نتحرر من ذلك فإن الشيء الوحيد الذي يجب القيام به هو التغيير والتراجع.

٢- بما أن الإنسان قاصر في فهمه لكثير من الأمور، وخاضع لرغباته في كثير من الأحيان، فإننا نستطيع أن نقول: إن كل النظم والتنظيمات التي وضعها الإنسان مصابة بالقصور الذاتي، وتلك النظم تشمل النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ونظم الفهم والتفسير والإدارة وحل المشكلات...

٣- زيادة النضج حيث إننا نجد كثيراً من الملحدين والمتطرفين في مواقفهم وكثيراً من المنحرفين... يعودون إلى رشدهم حين تتقدم بهم السن، والأمثلة على هذا أكثر من أن تُحصى، بل إننا نجد من أهل العلم والدعاة والمصلحين من يفعل ذلك، وإن الخبر السارّ في هذا هو أن الإنسان كلما نضج أكثر مضى نحو الاعتدال والهدوء في الطرح والصبر على تحليل الظواهر واستبانة الحق. العجيب في هذا هو أن الناس لا يعرفون كيف يقفون الموقف المنطقي والعادل من ذلك؛ إذ إنك تجد من ينتقد العالم إذا ثبت على أفكاره وآرائه وتوجّهاته، ويعد ذلك نوعاً من الجمود ونوعاً من العزلة عن تيار

الأفكار الجديدة، وإذا طوّر العالِم رؤيته أو فتواه أقاموا عليه الدنيا، واتهموه بالتذبذب والخضوع للمغريات التي قدمتها له هذه الجهة أو تلك!

السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما الذي علينا أن نعمله حتى نرسّخ ثقافة الاستدراك في حياتنا؟

الحقيقة أن علينا عمل العديد من الأمور، منها الآتي:

١ - التوبة واستسهال التراجع عن الخطأ، فما دام الوقوع في الخطأ شيئاً مألوفاً جداً، فينبغي أن تكون التوبة أيضاً شيئاً مألوفاً، وقد ورد أن نبينا كان يستغفر الله، ويتوب إليه في اليوم أكثر من مئة مرة، وهو المؤيَّد بالوحي المعصوم من الوقوع في الزلل، وبعضهم يمنعه من التوبة ما لديه من تهاون بغضب الله، واسترسال في الغفلة.

٢ - التخفيف من الحماسة للأفكار والآراء والمواقف الاجتهادية؛ إذ إن خطأها قد يظهر في أي لحظة، ويكون علينا حينئذ التراجع عنها بوضوح وجرأة.

٣- التوسّع في ممارسة النقد، والعمل على أن يمتلك كل واحد منا رؤية نقدية للقضايا الكبرى التي تمسّ حياة الأمة، وحياته الشخصية، وليس في النقد أي عدوان على أحد، بل هو عمل تكميلي للأفكار والطروحات والمشروعات البنائية، وهذا راسخ إلى حد يمكن أن نقول معه: إن كل ما يطرحه الناس من أفكار ورؤى

وخطط... يظل ناقصاً وفجاً مالم يظفر بنقد قوي ومنهجي، وقد أرسى القرآن الكريم مبدأ عظيماً في حياة هذه الأمة، وهذا المبدأ يقرر أنه لا ينبغي أن يكون في المجتمعات الإسلامية أي شخص فوق المساءلة، وإلاّ تحوّل إلى مظلة يستظل بها الفاسدون، وهذا ما نلمسه في عتاب الله تعالى لنبيه على بعض مواقفه واجتهاداته.

٤- إثراء العمل التطوعي والخيري، فقصور النظم والظلامات التي تقع والحقوق التي تُهضم بسببها تحتِّم علينا الاستدراك على ذلك من خلال بذل المعروف ومساعدة الضعيف والمساهمة في بناء المرافق االعامة، وبهذا الاعتبار لا يكون العمل الخيري والتطوعي من باب التبرع، وإنما من باب قضاء دين مستَحَق.

الأمم المتقدمة تنظر إلى ثقافة الاستدراك على أنها ثقافة النمو والإصلاح والتقدم، أما الأمم المتخلفة، فإنها تنظر إلى هذه الثقافة نظرة استخفاف أو استهجان، ومن ثم فإن الاستمرار في الخطأ والجمود على الموروث يكون في حياتهم هو سيد الموقف!

ما بعد الثراء

فُطر الإنسان على حب الخير، والنظر إلى المال على أنه مفتاح ووسيلة للحصول على كل أو معظم الأشياء، ولهذا فإن من النادر أن تجد من يتعامل مع الثراء على أنه تحدٍ، يحتاج إلى تدبير وكياسة في التعامل، وإلاّ صار مصدراً للأذى والضرر، مع أن القرآن الكريم، وضّح لنا دون لبس أن الغنى مثل الفقر أداة اختبار وابتلاء على نحو ما نجده في قول الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ومذهبي إيثار الغنيِّ الشاكر على الفقير الصابر؛ لأن الغني يستطيع الإسهام في حل كثير من المشكلات، على حين أن الفقير مشغول بنفسه، بل إنه ينتظر المساعدة من غيره.

المال في الرؤية الإسلامية وسيلة لقضاء الحاجات والشعور بالاستقرار والرضا ووسيلة للتقرب إلى الله تعالى وإن تحويل بعض الناس له إلى غاية وشيء مقصود لذاته يُدخل الكثير من الخلل على

حياتهم الشخصية، وعلى الحياة العامة أيضاً، وهذا الإشكال لا يقتصر في الحقيقة على المال بل هو عام، في كل شؤون الحياة؛ إذ إن تحويل الوسائل إلى غايات والغايات إلى وسائل موصول دائماً بانحطاط المدنية والاضطراب الشامل.

السؤال هو: ما الطريقة المثلى لتعامل الأفراد والحكومات مع الثروات التي تصبح بطريقةٍ ما في حوزتهم؟

في مقاربة الجواب أقول: إن على الفرد أن ينظر إلى الثروة على أنها نعمة كبرى من الله تعالى لكن هذه النعمة تشبه الوردة المحاطة بالأشواك، ومن ثم فإن من المهم التعامل مع الثروة على أنها شيء يحتاج إلى إدارة وعلم وحكمة وانضباط، وقد يتجلى ذلك في الآتي:

١- الحذر الشديد من استخدام المال في معصية الله تعالى لأنه بذلك يتحوّل من نعمة إلى نقمة، ويتحوّل معه صاحبه من النجاح إلى الفشل.

٢- من السهل أن يصبح المال مصدر انحطاط للشخص، وذلك من خلال الاستغراق في تثميره والتمتع به، ونحن نعرف الكثير من أبناء الأثرياء الذين انصرفوا عن إكمال تعليمهم بسبب الاعتقاد بأن التعليم للوظيفة، وهم ليسوا في حاجة إليها، كما أننا نعرف الكثير من الناس الذين حوَّلهم المال إلى طغاة ومتكبرين. إن (المال) يشبه (النار) فنحن في حاجة إلى الانتفاع بكل منهما، كما أنه يمكن لهما تدمير الكثير من الأشياء العزيزة.

٣- الصدقة وصلة الرحم والتوسعة على العيال وإكرام الإخوان من الوجوه الحسنة للاستفادة من المال، ونحن نعرف أن الإنفاق في سبيل الله باب عظيم من أبواب التقرّب إليه، بالإضافة إلى أنه وسيلة مثالية لحفظ المال وتنميته، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة ومشهورة.

٤- الاستفادة من المال في التعلّم وحضور الدورات التدريبية وتعليم الأبناء، وهذا مهم للغاية؛ لأننا بذلك نقوم بترجمة المكاسب الاقتصادية إلى مكاسب ثقافية، وبذلك يصبح المال عاملاً في إحداث تغييرات عميقة في شخصياتنا بعد أن كان عبارة عن شيء نملكه، وقد نفقده.

أما ما على الحكومات أن تفعله بالثروات التي تجتمع لديها، فإنه يتلخص في الآتي:

١- الإنفاق على البنية التحتية والخدمات العامة؛ لأنها تشكل في النهاية بيئة العيش وبيئة العمل لجميع المواطنين، ومن الصعب أن تحدث تنمية جيدة في ظل انقطاع الماء والكهرباء وفي ظل عدم وجود طرق ووسائل نقل مناسبة...

٢- استعادة التوازن الاجتماعي، وذلك لأن هناك الكثير من الأسباب التي تؤدي إلى وجود طبقة فقيرة بل معدومة، ويمكن للدولة أن تستخدم الثروة في دعم المشروعات الصغيرة ورصد المنح الدراسية لأبناء الفقراء وتقديم المساعدات المالية لهم من أجل ضمان حد أدنى من العيش الكريم.

٣- الإنفاق بسخاء على التعليم والبحث العلمي وتوجيه المال لإيجاد أنشطة ووظائف على صلة بالمعرفة، وهذه قضية مهمة، حيث يشهد العالم اليوم تكوّن رأس مال عالمي جديد، قوامُه المهارة والمعرفة والقيادة والإبداع، ورأس المال هذا هو الذي ترتكز عليه الشعوب حين تنضب ثرواتها ومعادنها، وحين يبلغ النمو المادي أقصاه.

٤ - إدخار شيء للأجيال القادمة؛ فالتغيّرات العالمية الهائلة والسريعة تجعل المستقبل شديد الغموض، ومن المهم حينئذ ألاّ نضع أحفادنا في ظروف لا يستطيعون تحمّل عبئها ولأوائها.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
عنف الظروف	٧
ثمن الضعف	١١
تأطير مجالات النهضة	١٥
ثلاثية التقدم	١٩
الجاذبية الثقافية	٢٣
صانع المرآة	٢٧
الانفتاح على الذات	٣١
أزمة كفاءات	٣٥
مسؤولية النخبة	٣٩
فضيلة التعاطف	٤٣
تنمية المعنى	٤٧
ثقافة العمل(١)	٥١
ثقافة العمل(٢)	٥٥
رأس الخيط(١)	٥٩
رأس الخيط(٢)	٦٣
البحث عن إضافة	٦٧

امتحان الثقافات	٧١
من المسؤول؟	٧٥
منافسة مفتوحة	٧٩
إلى أنصار الجوهر	٨٣
ثقافة الاستدراك	٨٧
ما بعد الشراء	٩١
الفهرس	٩٥